أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [طه]، بما يتناقض مع المقولة التوراتية القائلة بأن هلاك الفرعون وجيشه كان دينونة حتمية أراد الإله لها أن تتم تحت أي ظرف.

وبعد ذلك الرفض من الفرعون لطلبات موسى تتوالى الأحداث، وتتوالى الآيات العظمى التي أجراها الله تعالى على الفرعون وقومه، وكان الهدف من تلك الضربات أو الآيات وكذلك عددها ونوعيتها وتوقيتها مختلفاً فيما بين النصين كالعادة، فالهدف من تلك الآيات حسب المنظور القرآني كان محاولة إقناع الفرعون بالعدول عن غطرسته، وإيمانه بالله الواحد القهار، يقول تعالى: ﴿ ...وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف]، ﴿ ...لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]، وأيضاً: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه] ونحو ذلك، كما أن القرآن الكريم أوضح أن شدة الضربات كانت متدرجة إحداثاً لإنذار متصاعد الشدة ليس الغرض منه العقاب بل التحذير، يقول تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا... ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف]، بخلاف النص التوراتي الذي يعكس إصداراً إلهياً لحوحاً على تدمير هذا البلد وأهله وحكامه، بشكل لا ينفع معه استغفار أو توبة، بل هو (دينونة حتمية) كما تسميه الأدبيات التوراتية، أي إرادة إلهية مسبقة لا يمكن أن تتغير أو تتبدل، لذا كان الإله يجري الكارثة ويقرنها بزيادة تصلب وقسوة قلب الفرعون، حتى لا يجد فيها عظة أو إنذار، فيستمر بالتالي في الغي والغطرسة، وتستمر الكوارث والضربات بالتالي وصولاً لمرحلة الدمار الشامل، أي أن الفعل ورد الفعل مقرران إلهياً لهدف إلهي لا يقدر البشر على تغييره ولا على فهم سببه في الأساس.

***

الأحداث المواكبة لدعوة موسى للفرعون:

ويمكن تقسيم الأحداث التي وقعت في مصر لاحقاً إلى مجموعتين، أولاهما: هي الضربات العشرة الانتقامية الموجهة لمصر حسب النص التوراتي المصر على ذلك العدد، أو حسب النص القرآني هي تسع آيات بينات تحذيرية أو تذكيرية. وثانيهما، فهو حدث تحدث موسى عليه السلام لسحرة فرعون، وتلك الحادثة جاءت بشكل مقتضب في التوراة، ومكانها كان قصر فرعون، وليس تحدياً عاماً في إحدى الساحات كما ذكر

النص القرآني، كما أن النص التوراتي لا يشير مطلقاً إلى إيمان سحرة الفرعون بعد هذه الحادثة، كما لا يورد أي ذكر لانتقام الفرعون الوحشي منهم، بل ومن كل العبرانيين، كما أن النصوص التوراتية لا تزال تورد تدخل هؤلاء السحرة بشكل مثير للارتباك أمام موسى أثناء إجراء الضربات أو الآيات الإلهية كما سنورد لاحقاً، ونبدأ بنصوص حادثة السحرة كما جاءت في القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف].

وكذلك قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ

أَفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء].

أما النص التوراتي المتعلق بهؤلاء السحرة فجاء كالتالي، تقول التوراة: [طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً. فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة، ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم. فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب] (خروج ٧ : ١٠ – ١٣).

وهكذا فالنص التوراتي يرينا أن الذي ألقى العصا أمام فرعون كان هو هارون وليس موسى كما قال القرآن الكريم، واستمر ذلك في معظم الأحداث الانتقامية التي أتت لاحقاً، ومع توافق النصوص التوراتية مع القرآن في أن وظيفة هارون هي مساعدة موسى لأنه فصيح اللسان وخطيب مفوه أمام الفرعون، فلا أدري ما علاقة أفعاله هذه بالفصاحة أو الخطابة. وعلى أية حال فإن القصة التوراتية لا تذكر أي إشارة إلى إيمان السحرة، أو إلى عقاب فرعون لهم، كما لم تذكر أي إشارة إلى إيمان امرأة الفرعون أو بعض الرجال من الحاشية المصرية كما ذكر القرآن الكريم، وكأن الكهنة الذين سطروا تلك القصة يستكثرون دخول الإيمان إلى قلب أي مصري، واستبدلوا قصة إيمان السحرة باستمرارية تدخلهم بعد ذلك الحدث ضد موسى بشكل يثير التشتت الفكري، فبعد معجزة العصا حدثت الضربة الانتقامية الأولى وهي (ضربة الدم)، تقول التوراة: [رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده. فتحول كل الماء الذي في النهر دماً. ومات السمك الذي في النهر وأنتن النهر. فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر. وكان الدم في كل أرض مصر. وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم. فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب] (خروج ٧ : ٢٠ - ٢٢)[1]، وليست تلك النهاية، فبعد ضربة الدم تلك، جاءت ضربة الضفادع، حيث صعدت ملايين الضفادع من النيل فاقتحمت بيت الفرعون وفراشه وبيوت حاشيته وشعبه وأفرانه ومعاجنه، تقول التوراة: [فيفيض النهر ضفادع، فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك، عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع] (خروج ٨ : ٣ - ٤)، فماذا فعل السحرة؟ تقول التوراة: [فمد هارون يده على مياه مصر، فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر، وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر] (خروج ٨ : ٦ - ٧).

وهكذا فقد واصل هؤلاء السحرة والعرافون الحكماء مسلسل الغباء العجيب حسب القصة التوراتية، ولم يفيقوا إلى أن تلك الآيات كانت تحمل طابعاً إلهياً إلا في

(١) بالمنطق البسيط أن ما فعله السحرة في محاولتهم الثانية لتحدي موسى، هو أكثر الأفعال غباء وحمقا على مر التاريخ، وهو زيادة الطين بلة، بزيادة شدة تحويل الماء إلى دم، مماثلين في ذلك كل من أراد أن يغيظ جاره فقام ببتر أنفه هو نفسه.

النهاية، بعد أن عجزوا عن إيقاف غزو البعوض، تقول التوراة: [فقال العرافون لفرعون هذا أصبع الله. ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب] (خروج ٨: ١٩)

وهكذا فتلك الجزئية التوراتية رغم اقتضابها إلا أنها تحمل في طياتها علامات تعجب كثيرة، ولا تحمل أي إشارة عن الأحداث الطويلة التي ركز عليها القرآن الكريم.

أما النص القرآني فكان أكثر منطقية وواقعية، فيخبرنا أنه في مواجهة معجزتي العصا واليد، أن حاشية فرعون أشارت عليه أن يمهل موسى وهارون لبعض الوقت، حتى يتسنى لهم جمع عتاة السحرة من جميع مدائن مصر. وطلبوا إلى موسى بغطرسة أن يقوم بتحديد زمان ومكان لإجراء هذا التحدي العلني أمام جماهير الناس، فاختار موسى يوماً من الأعياد[1]، وأن يكون التوقيت في وقت الضحى ﴿...وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه]، واجتمع الفريقان، فريق السحرة محملين بوعود العطاء المالي والنفوذ الاجتماعي، وموسى وأخوه حاملان لهموم الصراع المصري، وبدأ السحرة بإلقاء الحبال والعصي، التي بدت للناس وكأنها ثعابين تتراقص بلعبة من ألعاب الحواة والسحرة، وهنا أوحى الله تعالى لموسى الخائف أن يلقي بعصاه، فتحولت إلى ثعبان ضخم قام بابتلاع كل العصي والحبال، وهنا بهت السحرة، فمعجزة موسى ليست نوعاً مماثلاً من خداع البصر، بل هي حياة حقيقية تدب في عصا ميتة، لا تتحرك وحسب، بل تلقف وتبتلع وترى وتتعقب، وإن كان الخداع قادراً على جعل الحبال والعصي تتلوى ظاهرياً[2]، فلا يوجد خداع آخر قادر على جعلها تختفي داخل جسم عصا أخرى تسعى خلفهم واحدة تلو الأخرى.

وهنا ينبغي أن نفهم أن ما حدث من موسى أمام السحرة، لم يكن أبداً على أنه تغلب بسحر أقوى مثلاً وحسب، بل إنه كان يحمل معنى رمزياً خطيراً ظل سائداً في الفكر المصري العقائدي، الذي كان يعتقده الفرعون وأتباعه وجموع الشعب المصري

(١) عيد الزينة عند قدماء المصريين.

(٢) وضع البعض التفاسير لهذه الخدعة مثل تمدد عصا وحبال من نسيج مرن بداخله زئبق بفعل الحرارة الشديدة، ونحو ذلك.

الملتفون حول هذا المشهد، وها نحن نطرح لأول مرة السبب الحقيقي وراء الاستسلام المفاجئ والهائل الذي قام به سحرة فرعون، الذين هم في الأساس كهنة المعابد المصرية، والذين يحفظون النص التالي ذكره من كتاب الموتى، والذي اكتشف في متون الأهرام[1]، والذي أساء الكثيرون بتأويل غير دقيق (أنشودة آكلي لحوم البشر)، وهذا النص الهام يرينا أن قوة الملك عندما يصير إلها بعد الموت، إنما تكمن في تحوله إلى ثعبان ضخم يلقف كل أرواح وأجسام الحكماء والسحرة فيحصل على سحرها داخل جوفه، وبذلك يضمن لنفسه الخلود في الأبدية متفوقاً على كل الكائنات في العالم الآخر، وهكذا فقد كان تحول عصا موسى بقدرة الله تعالى إلى هذا الرمز المخيف على أرض الواقع أمام الكهنة السحرة، إشارة رمزية لتواجد الإله الحق بجانب موسى - حسب الفهم الكهنوتي المصري وبلغته، تقول سطور هذه الأنشودة:

(إن الملك هو نور السماء الذي كان يشكو فيما سلف الحاجة

وقد وطد العزم أن يعيش من كينونته كل إله

فهو الذي أكل أحشاءهم بعد أن أتى بهم لهذا الغرض

وأجسامهم ملأى بقوة السحر من جزيرة النار

وأن الملك مجهز لأنه قد استحال في جسمه كل الأرواح

والملك هو رب القربان الذي عقد الحبل

وأن الملك هو من حقت كلمته مع من خفي اسمه[2]

وهو رب الرسل الذي يهب الرسالات

وإنه الثعبان المرفوع الرأس الذي يحرسهم له، والذي يطردهم بعيداً عنه

وإنه هو الذي يسيطر على الدم الأحمر[3] الذين أوثقوه له

وإنه الإله «خنسو» الذي ذبح الأرباب وبذلك قطع رقابهم للملك

---

(١) متون الأهرام، كتاب الموتى، فصل ٢٧٣ - ٢٧٤، سطر ٣٩٣ إلخ.

(٢) مع من خفي اسمه = الله.

(٣) الدم الأحمر هو اسم إله.

فأخذ له ما في بطونهم

وأن الملك هو الذي يلقف سحرهم ويبتلع أرواحهم

فالممتلئون من بينهم لإفطاره في الصباح[1]

والمتوسطون حجماً لوجبته في المساء

والصغار من بينهم لوجبته في العشاء

وأن الملك هو القوة العظيمة صاحب السلطان على الأقوياء

وكل من يعترض الملك في طريقه فإنه يأكله قطعة فقطعة

ولكنه يسر عندما تكون قوة سحرهم في بطنه

وأن شرف الملك لم يغتصب منه

لأنه ابتلع علم كل إله[2]

إن مدى حياة الملك هو الأبدية وحدوده هي الخلود

وذلك لأنه يتصف بكرامة واحد إذا أراد فعل وإذا لم يرد لم يفعل

وأرواحهم في بطن الملك وقوتهم الروحانية ملك له

وأرواحهم قد استولى عليها الملك، وظلالهم أخذت بعيداً عن أصحابها

إن الملك هو ذلك الذي يظهر، ومن قد يظهر، ومن يبقى، ومن يبقى)[3].

***

وعلى ضوء ذلك النص الكهنوتي من كتاب الموتى، يمكننا فهم سر الانبهار المفاجئ الذي أصاب السحرة أمام معجزة الثعبان واستسلامهم لرب موسى وهارون،

(١) لإفطاره في الصباح = (وأن يحشر الناس ضحى) [طه: ٥٩].

(٢) الكهنة هم أقانيم بشرية للإله، لاحظ صفة العلم هنا (يأتوك بكل سحار عليم) [الشعراء: ٣٧].

(٣) أنشودة آكلي لحوم البشر، ترجمها للعربية د. سليم حسن، ج١٨، ص٧، والهوامش بتصرف من الكاتب.

وجنون الفرعون أيضاً الذي خسر النزال العلني، والذي يشبه كثيراً ما نراه حتى وقتنا هذا في القرن الواحد والعشرين من تحديات بين المناطق والقبائل المختلفة في أنحاء متعددة من العالم استعمالاً لرموز القوة الحيوانية الشائعة في مجتمعاتهم، مثل صراع الهجن والديكة والثيران وخلافه، وفي حالتنا هذه فقد تم استعمال رمز حيواني شائع يرمز للقوة في الثقافة المصرية القديمة وتبعتها في ذلك الثقافة العبرانية.

ففي الفكر المصري، كان الثعبان أو الصل هو رمز القوة، الذي يضعه الملوك على تيجانهم وخوذاتهم الحربية[1]، وأن الدائرة الكونية كلها يحيط بها ثعبانان هائلان، وكانوا يعتقدون أن أرواح الآلهة تتقمصه، وأن مجرد مواجهة العدو بهذا الثعبان، الذي كثيراً ما كان يوصف بأنه ينفث النيران في صفوف الأعداء فيبيدهم، كان كافياً لإحراز النصر. وهكذا فالثعبان كان من جهة يمثل رمز قوة الفرعون، وقوة الآلهة التي تحميه في مواجهة الخصوم، ومن جهة أخرى كان يمثل في شكل ما ثبات النظام الكوني بوصفه الجندي الأعظم للإله الحقيقي، وهكذا فإن الثعبان المنتصر هو رمز لإرادة الإله وحقيقته، كما كان يمثل أيضاً رمز الشر في صوره المتعددة، التي أخطرها هو الثعبان (أبوفيس)، أو (أبوبي)، أو الثعبان (نيك)، ذلك الذي يعادي إله الشمس (رع) في دورته اليومية في السماء في مركبته المقدسة، عن طريق شرب ماء المحيط السماوي الذي تسبح فيه مركبة الخلود، أو انقلاب تلك السفينة ونحو ذلك، وكانت كثير من الشعائر الدينية المصرية تهدف إلى مساندة الإله الأعظم على عدوه هذا، وهكذا فقد تكون هزيمة الفرعون، ذلك الأقنوم الإلهي وممثل الإله على الأرض، على يد رمز ثعباني على الأرض، نذير خطير بحدوث خلل كوني يهدد الحياة والخلود، استناداً إلى الفكر الديني المصري القديم الذي رأينا ملامحه في قصيدة (آكلو لحوم البشر) والتي أوردناها سابقاً من كتاب الموتى، والتي ترتكز بدورها على الأسطورة الدينية المصرية عن نشوء الخليقة، عند انفصال السماء عن الأرض، حينما قام الإله (شو)[2] بفصل وليديه (نوت)[3]، والإله (جب)[4]، الذي كان عليه أن يكمل الدائرة الكونية المحيطة بالعالم عن طريق تقمصه لصورة ثعبان ضخم قام

(١) الحقيقة إن كل الآلهة المصرية قد تشكلت على هيئة ثعابين عند بدء الخليقة.

(٢) شو: هو إله الفراغ الكوني العظيم.

(٣) نوت هي إلهة السماء التي ولدت النجوم.

(٤) جب هو إله الأرض.

بابتلاع حيات الكوبرا السبعة المعادية لإرساء نظام الخليقة، وهكذا فحادثة الثعابين في قصة موسى عليه السلام لم تكن شيئاً خارجاً عن مألوف الفكر المصري الديني القديم، فالقرآن الكريم وحده في تلك الحادثة التي سطرها، يعكس معرفة ودراية محيطة بأهمية تلك الحادثة في الصراع، على عكس التوراة التي ذكرتها في صورة سطر واحد هامشي مبهم، مما يجعل الحادثة نفسها حدثاً تافهاً بالنسبة للأحداث الأخرى التي كانت أكثر أهمية لهم، كونها أحداثاً مصبوغة بالنزعة الانتقامية.

أما من ناحية الثقافة العبرية، فإن الثعبان يرمز بالمثل لنفس الجانبين اللذين أوضحناهما في العقيدة المصرية القديمة، جانب الشر والشيطان فنراه في سفر التكوين هو الذي يتسلل لحواء ويغريها بالأكل من الشجرة المحرمة، ويوقع جنس البشر في مأزق الطرد من الجنة واللعنة الإلهية، وهكذا أصبحت الحية أو الثعبان رمزاً ملعوناً في حد ذاته في الفكر العبراني من جهة، تقول التوراة: [فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين[1] كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه] (تكوين ٣ : ١٤ – ١٥).

أما عن الجانب الآخر من رمزية الثعبان في الفكر العبراني التوراتي فنرى في سفر العدد المنسوب لموسى، أن الشعب الإسرائيلي لما تمرد على الرب وتذمر حدث ما يلي، تقول التوراة: [فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل. فأتى الشعب إلى موسى وقالوا قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك. فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات. فصلى موسى لأجل الشعب. فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا. فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا] (عدد ٢١ : ٦ – ٩).

وهكذا نرى أن الفكر التوراتي يحذو حذو الفكر الكهنوتي المصري خطوة بخطوة، باعتماده عقيدة ازدواجية الرمزية الممثلة للحية أو الثعبان، فتارة نراه كجندي صالح من جنود الإله أو أداة من أدواته، وتارة أخرى نراه رمزاً للشر أو الشيطان أو

(١) الثعبان يلقف ولا يأكل كالإنسان والنمل والدواب والأنعام.

معاداة الإله نفسه، ولعلنا لا نعجب من تلك الازدواجية إذا علمنا أن اليهود كانوا قد نصبوا تمثالاً نحاسياً هائلاً لتلك الحية في هيكلهم المقدس، وادعوا أنها حية موسى، ودعوها(نحشتان)، وقاموا بعبادتها وتقديم القرابين لها، مما اضطر أحد الملوك اليهود المتأخرين من الإصلاحيين إلى سحق هذه الحية، وتدمير أنصابها في الهيكل[1].

وهكذا فقد انتهى أمر النزال العلني بكارثة حقيقية للفرعون وهيبته، فلم يخسر اللقاء وحسب، بل إن تلك الزمرة من صفوة سحرة مصر وكهنتها وحكمائها تنكرت لهيبة هذا الفرعون وسطوته، وقامت بالسجود لإله موسى والاعتراف به علناً أمام الناس، مما أفقده صوابه، ورفض الإذعان لنتيجة النزال واللقاء، وألقى التهم جزافاً، فتارة يصرخ قائلاً بأن هؤلاء السحرة هم تلامذة موسى الذين تعلموا على يديه السحر، لذلك فقد تآمروا معه، وهذا الاتهام طبعاً غير منطقي حيث إن هؤلاء السحرة قد تم جمعهم من مدائن مختلفة، كما أن الفرعون اتهم السحرة أيضاً بتهمة الخيانة العظمى عن طريق التآمر مع موسى ليحقق أهدافه، واتهمهم بشق عصا الطاعة وإعلان هزيمة العقيدة المصرية برمتها أمام العقيدة التي بشر بها موسى، دون استئذان هذا الفرعون المتغطرس، وتلك الاتهامات كانت كافية في حد ذاتها لإيقاع أقصى العقوبة بهؤلاء السحرة، وكانت تلك العقوبة هي قطع الأيدي والأرجل من خلاف[2]، ثم الصلب على جذوع النخل، بشكل علني ظاهر للعيان، ثم زاد في العسف والعنف تجاه العبرانيين، وذلك عن طريق إحياء نظام قتل المواليد، والذي يبدو أنه كان قد توقف أو خفت وطأته، وهكذا تحول الموقف السياسي إلى كارثة، فهناك أمة معادية للفرعون تطلب الخروج عن طاعته، بل والخروج من البلاد تجاه الشرق، بما يمثل ذلك من تهديد حربي واقتصادي خطير، وهناك بوادر تصاعد خطير في العصيان والثورة بين صفوفهم.

وهنا يأتي سؤال: ما السبب الذي جعل الفرعون يترك موسى وهارون يفلتان وهما رأس الفتنة في نظره؟

---

(١) هذا الملك هو الملك حزقيا (٧٢٣ - ٦٩٣ ق.م)، تقول التوراة: [وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان] (الملوك الثاني ١٨: ٤).

(٢) ثبت من البرديات أن بتر الأعضاء كان من العقوبات المطبقة في مصر القديمة.

في الحقيقة فإن علينا أن نفترض أن الفرعون لم يكن ساذجاً إلى هذا الحد، هذا الملك الطاغية الذي أرسل الله له وحده رسولين، ولكن علينا أن نفترض أن الظروف المحيطة بالموقف ككل لم تكن تسمح له بتوقيف الرجلين وإيقاع العقاب بهما، ولنا أن نستنتج من التحليل السابق أن الفرعون لم يكن بهذا القدر من القوة، وأن مجموع العبرانيين أيضاً لم تكن بهذا القدر من الضعف، ولنا أن نرى في المرحلة كلها توازناً هشاً في القوى، لم يستطع الفرعون رد خرقه حتى اللحظة الأخيرة[1].

ولعله من المفهوم أيضاً، أن قمع الفرعون للسحرة الذين هم أساساً من حكماء وكهنة المعابد المصرية في تلك الحادثة، قد أدى إلى حدوث انشقاق واضح وصريح ما بين الإدارة السياسية والإدارة الدينية في البلاد، خاصة بين شباب الكهنة المتعطشين للتمرد بدافع المطامع الشخصية، وهؤلاء قد أصبحوا طابوراً خامساً خفياً ضد سلطة الفرعون يعمل لمصالحه الخاصة[2].

نعود لسياق الأحداث، وتفاقم العنف الفرعوني تجاه العبرانيين، وظهور بوادر انشقاق في جموع العبرانيين أيضاً نتيجة لذلك، يقول تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾ [الأعراف] ويبدو أن موسى قد استطاع

(١) لنا أن نقارن تلك المرحلة بأحداث تاريخية أخرى قامت فيها مجتمعات العبيد بالثورة المنظمة، وألحقت أفدح الخسائر بالإمبراطوريات الحاكمة، مثل ثورة العبيد في روما بقيادة (سبارتاكوس)، وثورة الزنج في تاريخ الخلافة العربية، واضطرابات السود في أمريكا في القرن العشرين لنيل الحقوق المدنية وخلافه.

(٢) لا أستبعد أن (السامري) كان واحداً من هؤلاء الكهنة، خاصة إذا قمنا بتحليل اسمه وإرجاعه إلى أصله، فكلمة (سامري) هي كلمة من شقين (سا) وتعني (ابن) في المصرية القديمة، والآخر (مري) وتعني (مصر) في المصرية القديمة، مما يعطي الاسم مدلولاً ظاهراً هو (ابن مصر) أو (المصري) أو (القبطي)، هذا الشخص الذي أورد ذكره القرآن متفرداً، وكان قد غادر مصر مع جموع العبرانيين، وقام باستخدام مهاراته ومعارفه في السحر لاحقا لصنع العجل الذهبي، بشكل يبدو فيه تأثير السحر جلياً بإظهار العجل بمظهر الكائن الحي، بالإضافة لتبنيه لمظهر العبادة المتعلق بالبقرات والعجول المقدسة كما ورد في العبادات المصرية، تلك الواقعة التي ألصقتها التوراة بهارون عليه السلام، هروباً من المأزق التي وقعت فيه آنفاً بجعلهم أن السحرة لم يستسلموا في أول الأمر واستمروا في مسلسل الغباء أمام الضربات الإلهية على مصر.

بسرعة التغلب على هذا التذمر، فالطريق إلى إرضاء الفرعون لمن أراد أصبح عسيراً، وكان على الجميع التجمع حول موسى ودعوته وشيعته، وخاصة أن الآيات التحذيرية والتي كانت تحمل طابعاً مدمراً قد أخذت في التلاحق على أرض مصر، مما أنهك قوى الفرعون، وأصبحت الأمور الإدارية والاقتصادية بل والدينية على شفا حفرة من الكارثة.

نبدأ بقوم موسى الذين أصبحوا الآن على قناعة أكثر بإمكانية التحرر الكامل من الهيمنة المصرية، وإقامة دولة خاصة بهم بعيداً عن هذا الشعب قوي الشكيمة الذي كان يمر بدورة ضعف وفقر وفساد جعلته في وضع ملائم جداً لتحقيق الهدف الإسرائيلي، فنجد أن موسى قد بدأ في اتخاذ إجراءات تنظيمية خاصة بتحديد القيادات وترتيب الجموع على شكل ديني وعرقي، يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]، وتلك الجزئية لا نجد لها أي ذكر في التوراة حيث إنها جزئية قرآنية صرفة، ولا نستبعد أن تلك البيوت التي ذكرت في الآية الكريمة، كانت بيوت رءوس الأسباط الاثنى عشر، مما سهل على موسى أن يقوم بعد ذلك أثناء الخروج من مصر والترحال في سيناء أن ينظم عمليات الارتحال والمعسكرات والأكل والشرب لذلك الشعب الغفير، وهكذا فقد كان اتخاذ هذه البيوت قبلة للصلاة هو أول تنظيم لتلك الفوضى على أساس ديني، كما كانت بداية لانضمام الشعب العبراني كله إلى عبادة إله واحد، ونبذ العادات والعقائد المصرية القديمة.

أما على الجانب المصري، فقد توالت الكوارث البيئية بشكل متلاحق وسريع، ونرى النص توراتي يشير إلى تيقن الفرعون وحاشيته بالمصدر الإلهي الكامن خلف تلك النوازل، وطلبه في كثير من الأحوال الدعاء من موسى لربه لرفع البلاء، وهذا يتفق مع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٥]، وهنا نرى نوعاً من النفاق العقائدي يمارسه الفرعون، الذي يزعم جهاراً أنه الإله الأوحد، ويرسل ليلاً لموسى ليتضرع إلى إلهه كي يرفع البلاء عن البلاد، إقراراً منه بضعفه سراً، على عكس ما يعلنه على الملأ، ولعل ذلك كان من أكبر خطايا

تلك الجماعة، النفاق الفكري، وقد عبر عنه القرآن في محكم آياته بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]، ثم إن خداع الآخرين بالنفاق جرهم لخداع أنفسهم هم بالتشاؤم والتطير حسب قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأعراف].

وهكذا فالوضع النفسي على الجبهة الفرعونية كان يائساً متخبطاً إلى أقصى الحدود، فمن عنف يائس غير قادر على إيقاع إيذاء حقيقي بالعدو، إلى مواجهة الجماهير بالخداع والأقاويل التي لا يؤمن بها حتى قائلها نفسه فلا تنطلي بالتالي على غيره، ذلك الوضع الذي يتطور لاحقاً إلى انهيار معنوي يتمثل في خداع الذات واللجوء إلى الخرافات، من تشاؤم وتطير وتمسك بالسحر وخلافه. هكذا كان حال القوم.

ولعله لا يفوتنا هنا أن وعد الفرعون بالإيمان لموسى ومن ثم إرسال بني إسرائيل معه كان تنازلاً يائساً كاملاً لا يُجدي معه النكوص لاحقاً. تقول التوراة إن الفرعون حاول أيضاً المساومة عن طريق تقديم التنازلات التدريجية، وقد ووجهت محاولاته هذه بدهاء من قبل الإسرائيليين، ذلك الدهاء الذي تمثل في تمسكهم بمطالبهم ولم يقبلوا التراجع عنها حتى حدوث الانفجار الأخير، وتفصيل التدرج في تلك الأحداث يبدأ بالرفض الفرعوني الكامل لمطالب موسى، ثم الوعد بإطلاق الشعب والنكوص عنه مرات متعددة، إلى السماح بإطلاق الشعب للقيام بطقوس القربان على ألا يغادر إلى الصحراء، ثم النكوص عن هذا الوعد أيضاً، إلى السماح بإطلاق الرجال فقط مع إبقاء النساء والأطفال كرهائن لضمان عودتهم، واتقاء لشر أي مكائد يدبرها هؤلاء الرجال، ثم النكوص عن هذا الوعد، ثم السماح بإطلاق الجميع عدا الحاشية، إلى التراجع النهائي المبدئي عن أية وعود، والذي انتهى ثانية بسماح مطلق بالخروج، أعقبه ندم وتعقب للجموع الخارجة، وانتهى الأمر برمته بكارثة إغراق الفرعون وجيشه.

ولعل هذه التنازلات المتزايدة والوعود الزائفة الكثيرة التي ذكرتها التوراة يمكن أن تعكس مدى تعاسة وضعف موقف الفرعون، كما يمكننا القول إن هذه

المساومات الطويلة بأسلوب الإسهاب في التفاصيل والتراجع المستمر هو أسلوب عقائدي إسرائيلي ثابت انعكس بصورة ما على تلك القصة التوراتية، حيث إنه من الصعب تخيل أن الفرعون كان شخصية مترددة ومذبذبة إلى درجة أنه أحس وبشدة أن الكوارث الدائمة الحدوث المتمثلة في الضربات العشرة الانتقامية التي نزلت على مصر، والمحيقة به وبشعبه وحاشيته كانت صادرة عن انتقام إلهي، فأعطى وعوداً كثيرة مختلفة ومتناقضة، ونكص عنها عشر مرات بعدد تلك الضربات.

وأميل هنا إلى أن لجوء الفرعون لعدوه اللدود موسى قد حدث بعد تراكم هذه الأحداث والكوارث بشكل تعقابي ولمرة واحدة فقط بعد أن فقد السيطرة على مقاليد الأمور بالفعل وأصبح الضغط عليه شديداً ولا يحتمل، كما أشار إلى هذا القرآن الكريم في محكم التنزيل، يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأعراف].

نأتي الآن إلى نقطة النكبات والكوارث التي حلت بأرض مصر قبيل مرحلة الخروج الإسرائيلي، والتي أسمتها التوراة (الضربات الإلهية العشرة)، وأسماها القرآن (الآيات البينات التسعة)، وفي واقع الأمر فإن الاختلاف العددي بين النصين ليس إلا ركناً واحداً من أركان الاختلاف، فهناك اختلاف في الهدف الإلهي من تلك الضربات سبق وأن عرضنا له، وهناك اختلاف في نوعية الضربات، وترتيبها، وتأثيرها، ومنطقية ربطها بعضها ببعض، وأيضاً بالأحداث المحيطة بها. والجدول التالي يوضح الفروق بين الضربات توراتياً وقرآنياً.

العدد	الضربات الإلهية في التوراة	العدد	الآيات البينات في القرآن
١	ضربة الدم	١	تحويل العصا إلى ثعبان
٢	ضربة صعود الضفادع	٢	تغير لون اليد
٣	غزو البعوض	٣	السنين ونقص الثمرات
٤	أسراب الذباب	٤	الطوفان
٥	إهلاك المواشي	٥	الجراد
٦	الدمامل المتقيحة	٦	القمل
٧	سقوط البرد	٧	الضفادع
٨	غزو الجراد	٨	الدم
٩	الظلام الكثيف	٩	الرجز أو (الوباء)
١٠	موت الأبكار من كل شيء		

ومن النظرة الأولى، فإن الضربات التوراتية، تبدو كلها ضربات انتقامية تدميرية كارثية، أما الآيات القرآنية فتشمل اثنتين هما: معجزتا العصا واليد مما اعتبرته التوراة فقط (معجزات برهانية)، ولم تدخلهم ضمن نطاق التعداد، كما أننا نلاحظ أن الترتيب التصاعدي يبدو معكوساً في النصين، فالنص التوراتي يعرض ضربة الدم في البداية يليها ضربة الضفادع، أما النص القرآني فيعرض آية الضفادع تليها آية الدم في موقع متأخر من الأحداث، كما أن النصين يشتركان في ثلاثة وقائع فقط هي: الضفادع والدم والجراد، ويختلفان في بقية القائمة، وعلى ذلك فالتوراة تورد ضربات أسمتها: (البعوض والذباب وإهلاك المواشي والدمامل المتقيحة وسقوط البرد والظلام الكثيف وموت الأبكار)، مما لم يورده النص القرآني، والنص القرآني يورد (دورة القحط والطوفان والقمل والرجز «الوباء»)، مما لم يرد في التوراة. فالحقيقة التي نراها جلية هنا أن أوجه الاختلاف بينهما أكبر بكثير من أوجه الاتفاق، مما يتعارض مع كون أحدهما مستقى

من الآخر. وبتحليل ومقارنة القائمتين نجد أنه لابد من تحليل الضربة التوراتية الزائدة في التعداد (الضربة العاشرة) أو (ضربة موت الأبكار)، والتي جاءت كضربة نهائية قبل خروج بني إسرائيل من مصر حسب النصوص التوراتية، تقول التوراة عن تلك الضربة: [وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر. فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة. ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً. ولكن جميع بني إسرائيل لا يسنن كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم. لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل] (خروج ١١: ٤ – ٧).

وقد أثار الطابع الفولكلوري الانتقامي البسيط لتلك الضربة حسب الفكر الانتقامي لبدو العبرانيين، اندهاش كثير من المحللين، فأورد زينون كاسيدوفسكي مثلاً عن تلك الضربة ما نصه: [وأخيراً لابد من قول بضع كلمات عن الكارثة العاشرة التي حلت بمصر. لا شك أننا لن نأخذ رواية التوراة عن أن الموت لم يحصد سوى بكور الأولاد الذكور وذكور الحيوانات على أنها الحقيقة بعينها. غير أنه يمكننا أن نعتقد أن هذه الأسطورة جاءت صدى لوباء ما حصد كثرة من الأطفال في منطقة النيل الأعلى ولم يصل إلى جاسان ولذلك نجا الأطفال الإسرائيليون منه. أما باقي الأسطورة فقد أخذ الخيال الشعبي على عاتقه عملية إنجازه. ونحن نعرف من قصة عيسو ويعقوب وغيرها من الروايات التوراتية أن القبائل اليهودية القديمة أعطت أهمية كبيرة للبكور من الذكور. فقد كان هؤلاء الورثة الرئيسون وحاملو التقاليد العائلية. وكان موت الولد الأكبر واقعة أقسى من موت إخوته الآخرين بكثير. وهكذا نسج الإسرائيليون الأسطورة وكأن يهوه عاقب المصريين عقاباً صارماً بموت بكورهم الذكور وذكور بهائمهم] انتهى[1].

ونستطيع نحن أن نضيف بصدد تلك الواقعة بالذات ما أوضحناه سابقاً من فكرة (الأسطورة المضادة)، والتي تفيد بأن الفرعون كان يقوم بقتل ذكور العبرانيين – وإن لم يكن أبكارهم – لذا فقد تم عقابه على يد (الإله يهوه) المحارب الإسرائيلي الأول، وبنفس النمط وبشكل أكثر إيلاماً، كما يمكننا استنتاج صواب فكرة زينون كاسيدوفسكي

(١) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التورات، ص١١٤.

عن الوباء الذي كان يضرب المصريين ويقضي على أطفالهم الضعاف، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار ضربات مثل (الدمامل المتقيحة) التي أصابت الناس والبهائم سوياً وأدت إلى وفاة أعداد ضخمة من الناس والبهائم، خاصة إذا أضفنا لذلك أن هذا الوباء قد حدث مباشرة بعد وباء وتلوث شديد انتشر أولاً في البهائم والمزروعات ومياه الشرب مما أدى إلى حدوث مجاعة طاحنة، واكب تردي في حالة البيئة العامة، من فساد لماء الشرب، وتكاثر الطفيليات والحشرات كالضفادع والبعوض والذباب، ويزداد الأمر جلاء إذا استحضرنا النص القرآني الذي أخبرنا وحده عن وباء خطير اجتاح مصر في تلك الأوقات أسماه القرآن (الرجز)، كان من العنف بحيث أجبر الفرعون على طلب المساعدة من موسى ذاته، كما انفرد القرآن بذكر (القمل) كحشرة انتشرت بين المصريين حينذاك، وعلى ذلك نستطيع أن نرسم تصوراً كاملاً لمرض ينتشر بشكل وبائي مفزع بين الناس، ويؤدي لحدوث طفح جلدي صديدي مؤلم (الدمامل المتقيحة)، ويعقبه تردي مقومات الصحة العامة، وبالذات انتشار القمل، ويؤدي إلى وفيات ضخمة بين الأطفال، ولا يوجد وصف طبي أحسن من ذلك لطاعون (التيفوس).

وفي الواقع نستطيع أن نستنتج أن كتبة التوراة في محاولاتهم لرصد وقائع الكوارث التي حاقت بمصر حينذاك، قد قاموا بتعديد مظاهر متعددة لحدث واحد هو الوباء (الرجز) وأوردوها على أنها أحداث منفصلة، رغم أنهم عددوا مظاهر ذلك الوباء بالترتيب، من انتشار القمل (الذي كتبوه بعوضاً)، ثم هلاك المواشي، والدمامل المتقيحة، وموت الأبكار[1]، وتكاثر الذباب الناشئ عن كثرة الجثث، على أنها كوارث منفصلة.

ومن المثير للدهشة أن نجد نصاً في التوراة وفي سفر التثنية بالذات المنسوب لموسى نفسه، وصفاً تفصيلياً رائعاً للحالة المرضية، والظروف البيئية المحيطة بذلك الوباء الخطير الذي تسببه حشرة القمل وخاصة (قمل الرأس) وليس (قمل العانة)، وليس حشرة البعوض كما ذكرت التوراة والتي تسبب مرض الملاريا أو داء الفيل أو الالتهاب السحائي، تقول التوراة[2]: [يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض

(١) موت الأبكار يمكن فهمه على أنه وباء أصاب الأطفال أكثر من البالغين كالعادة في الأوبئة.

(٢) الحوار موجه لموسى عليه السلام بعد خروجه من مصر متوجهاً إلى أرض كنعان. غير أن الضربات لم تحدث بالطبع.

التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها. يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك. وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً[1] والأرض التي تحتك حديداً[2]. ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك][3] (التثنية ٢٨ : ٢١ – ٢٤)، ثم: [يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء. يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب. فتتلمس في الظهر كما يتلمس الأعمى في الظلام ولا تنجح في طرقك] (تثنية ٢٨ : ٢٧ – ٢٩)، ثم: [وتكون مجنوناً[4] من منظر عينيك الذي تنظر. يضربك الرب بقرح[5] خبيث على الركبتين وعلى الساقين حتى لا تستطيع الشفاء من أسفل قدمك إلى قمة رأسك] (تثنية ٢٨ : ٣٤ – ٣٥)، ثم: [بذاراً كثيراً تخرج إلى الحقل وقليلاً تجمع لأن الجراد يأكله] (تثنية ٢٨ : ٣٨)، ثم: [تستعبد لأعدائك الذين يرسلهم الرب عليك في جوع وعطش وعري وعوز كل شيء] (تثنية ٢٨ : ٤٨)، ثم: [فتأكل ثمرة بطنك لحم بنيك وبناتك الذين أعطاك الرب إلهك في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك] (تثنية ٢٨ : ٥٣)، ثم: [ويرد عليك جميع أدواء مصر التي فزعت منها فتلتصق بك] (تثنية٢٨ : ٦٠)، ثم: [أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وبكل أرضه. التجارب العظيمة التي أبصرتها عيناك وتلك الآيات والعجائب العظيمة] (تثنية ٢٩ : ٢ – ٣).

ونتوقف عن سرد السطور التوراتية، لنبدأ في وصف هذا الوباء الخطير المسمى (التيفوس) كما جاء في المصادر الطبية من كتاب مرجع الجراثيم المترجم فقرات منه على الشبكة العنكبوتية:

[يعتبر التيفوس واحداً من مجموعة أمراض تسببها الجراثيم المعروفة باسم (ريكتسيا)، والتي تنتقل غالباً عن طريق حشرات مفصلية، وعندما تدخل هذه

---

(١) نحاس أي اللون البرونزي.

(٢) الحديد اللون الأحمر، وتغير اللون، الجرب، وهما – النحاس والحديد – العلاقة بين الكارثة البيئية والوباء.

(٣) ظاهرة الغبار البركاني وتوابعها.

(٤) التشوش الفكري والحس والهذيان.

(٥) دمامل مؤلمة.

الجراثيم جسم الإنسان تتكاثر في الدم، ثم تتركز موضعياً في الخلايا المبطنة للأوعية الدموية مسببة تحطيماً لتلك الخلايا، مما يؤدي إلى نشوء تخثرات دموية وانسداد كلي أو جزئي في تجاويف الأوردة[1]، وأخطر أنواع التيفوس هو التيفوس الوبائي (التقليدي) والذي سبب كوارث هائلة للبشرية، وينتشر عادة في صورة وبائية مدمرة في أوقات الحروب والمجاعات، ويعزى إليه في زماننا المعاصر أحداث هامة مثل انسحاب نابليون من موسكو، وأيضاً موت أكثر من ثلاثة ملايين إنسان أثناء الثورة البلشفية في روسيا ١٩١٧ - ١٩٢٢. أما الحشرة الناقلة للمرض فهي قملة الجسم أساساً، وقد تشارك قملة الرأس في ذلك ولكن ليس قمل العانة، وعندما تتغذى تلك الحشرات على الدم تتكاثر الجراثيم في جوفها وتظهر في برازها وتقتلها في النهاية، مما يسبب انتقال العدوى للإنسان عن طريق إحداث جروح في الجلد نتيجة الحكة والهرش المصاحب لتغذية القملة... وتبدأ الحالة المرضية بحدوث حمى وارتعاش لا يمكن تفريقها عن أنواع الحميات الأخرى، حتى يبدأ الطفح الجلدي في الظهور في اليوم الخامس غالباً، بشكل بثور مسطحة محتقنة أولاً تتحول لاحقاً إلى ثآليل محتقنة، تبدأ على الجذع وتنتشر منه للأطراف، وعند حلول الأسبوع الثاني يصبح المريض مشوش الوعي ويصاب بالهذيان، هذا إن كلمة تيفوس اشتقت من تردي حالة الوعي في هذا المرض (تيفوس Typhos يعني السحابة أو الدخان... هذا وتتراوح الوفيات الوبائية في هذا المرض بين ١٥ - ٧٠٪][2] انتهى.

ومن مقارنة النصين التوراتي والعلمي، نستطيع بسهولة أن نحدد أن الوباء الموصوف هو وباء التيفوس الذي ينتشر عن طريق القمل الذي انفرد القرآن الكريم وحده بذكره، من حيث الانتشار الوبائي، والناقل، والصورة السريرية، ومعدل الوفيات، والظروف البيئية التي تؤدي لانتشاره.

وعموماً فإن ذلك الفهم قد يساعدنا في كشف الكثير من غوامض ذلك النص التوراتي، فمثلاً جاء عن الضربة الخامسة، ضربة أو طاعون إهلاك المواشي ما نصه: [فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم

(١) هذا ما عبر عنه كتبة التوراة بالبواسير.

(٢) يطلق اسم (تيفون Typhon) على الأعاصير الدرامية المدمرة، كما أن التوراة تطلقه على الشيطان.

وباء ثقيلاً جداً... فماتت جميع مواشي المصريين] (خروج ٩ : ٣ - ٦). ثم تفاجئنا التوراة في الضربة السادسة (ضربة الدمامل المتقيحة) أنه: [فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر] (خروج ٩ : ٩)، ولا ندري كيف تبقت هناك بهائم بعد الضربة السابقة التي أهلكت (جميع) مواشي المصريين، بل والأعجب أن الضربة السابعة (ضربة سقوط البرد) قد أهلكت أيضاً مواشي المصريين ثانية، تقول التوراة: [جميع الناس والبهائم الذين يوجدون في الحقل ولا يجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون] (خروج ٩ : ١٩)، بل لعلي أتساءل كيف تبقت للفرعون خيول قام بمطاردة العبرانيين على ظهورها ما دام الأمر هكذا؟!

كما أن في ضربة البرد هذه أورد كاتبو التوراة ما نصه: [فضرب البرد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل] (خروج ٩ : ٢٥)، إلا أنهم عادوا وتداركوا الأمر، فلا تزال هناك ضربة الجراد تنتظر لتحدث، وينبغي أن يتواجد شيء للجراد كي يأكله، فعادوا في نص لاحق مقحم على السياق وقالوا: [فالكتان والشعير ضربا، لأن الشعير كان مسبلاً والكتان مبزراً، وأما الحنطة والقطاني فلم تضرب لأنها كانت متأخرة] (خروج ٩ : ٣١ - ٣٢)، ولا ندري هل يصيب البرد النباتات التي كانت قد نمت لنهاية دورتها تماماً، ويترك النباتات الغضة النامية التي تصل للنضج لاحقاً؟!.

وبنفس الأسلوب، نستطيع أن نفهم أن غزو أسراب الجراد الذي [غطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض] (خروج ١٠ : ١٥)، والذي كثيراً ما يصاحب الرياح الترابية الكثيفة المعتادة على أرض مصر والتي تعرف بـ(رياح الخماسين)، ذلك الذي عدته التوراة الضربة الثامنة، هو المسبب للضربة التاسعة المسماة (ضربة الظلام الكثيف)[1]، والذي دام فقط لمدة ثلاثة أيام بعد الظلام المخيف الأطول الناتج عن السحابة الغبارية البركانية، كما أنني لا أستطيع تفهم إحجام التوراة عن ذكر الوباء (الرجز) الذي أصاب أرض مصر كنتيجة طبيعية لكل تلك الكوارث البيئية، ولعل التأمل في النص التوراتي يرينا أن ذكر الوباء قد جاء بالفعل في قول الإله يهوه على لسان موسى قائلاً: [لأني هذه المرة أرسل ضرباتي إلى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعرف أن ليس مثلي في كل الأرض.

(١) من كثافته يكاد يلمسه المرء بيده.

فإنه الآن لو كنت أمد يدي وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الأرض. ولكن لأجل هذا أقمتك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي في كل الأرض] (خروج ٩ : ١٤ – ١٦). وهكذا فالكهنة يوردون سبباً إلهياً لعدم الإصابة بالوباء الموعود، غير السبب الحقيقي وهو أنهم قد عددوا كل خطواته على أنها ضربات منفصلة، وماذا يمكن إذاً أن نسمي إهلاك المواشي كلها أولاً بوباء انتقل منها للناس، أو تبعها آخر منفصل يصيب البشر، مع تكاثر الحشرات الناقلة للأمراض، وكذلك الحشرات المتمرمة والطفيلية؟ حتى يأتي الإله هنا وينكر أنه سيرسل وباء، بل كيف نسوغ هذا التهديد العنيف بتوجيه الضربات إلى قلب فرعون وكل ما يملك، ذلك الذي تبعه سقوط البرد، وغزو جراد، وظلام، وكأن تلك الأخيرة أشد وطأة مما سبقها من كوارث؟!

نتوقف الآن عند نقطة أخرى من النقاش، وهي محاولة تفسير منطقي وعلمي للأحداث التي سميت بالآيات البينات، أو الضربات الإلهية، يقول زينون كاسيدوفسكي: [من المعروف أن ما يعرف بالكوارث المصرية (باستثناء العاشرة منها) هي ظواهر طبيعية معتادة في بلاد الفراعنة. ففي زمن الفيضان تغدو مياه النيل ذات لون بني أحمر بسبب الطمي الذي تحمله من البحيرات الأثيوبية. أضف إلى ذلك أن البعوض وغيره من الحشرات تتضاعف أعدادها من فترة لأخرى في زمن فيضان النيل إلى حد يجعل الفلاحين المصريين يعدون ذلك كارثة طبيعية حقيقية. أما فيما يتعلق بالبرد فالحقيقة أنه نادراً ما كان يهطل فوق النيل وعندما كان يحدث ويهطل فأضراره تكون جسيمة. ولكن جيوش الجراد كانت غالباً ما تهاجم الزراعة المصرية. أما المذنب في (الظلام الذي خيم فوق مصر) فهو الإعصار الجنوبي الشرقي الجامح الذي كان يحمل سحباً كثيفة من الرمال ويقذف بها فوق مصر حاجباً أشعة الشمس بتيار كثيف يجعل الظلام يخيم فوق البلاد فعلاً. ولكن التوراة تؤكد أن تلك الكوارث هي من فعل موسى أراد استخدامها وسيلة ضغط لإرغام الفرعون المصري العنيد على إطلاق سراح الإسرائيليين. كيف كان يمكن أن تظهر مثل هذه الأسطورة إذا كانت الكوارث المشار إليها قد حلت على رءوس المصريين في عهد ميرنيبت، أي في المرحلة التي نشط فيها موسى؟!، فالجواب على هذا السؤال سهل. فالإسرائيليون شعب بسيط ساذج سرعان ما يصدق الخرافات ويؤمن بها، ولذلك كان من السهل عليه جداً أن يعد موسى ساحراً كبيراً وممثلاً ليهوه

عاقب فرعون وموظفيه على اضطهادهم له. بل وكان يمكن أن يؤمن المصريون أنفسهم بذلك لأنهم كانوا يؤمنون بوجود السحر. ونحن نعرف من الوثائق والتوراة أن المصريين نسبوا إلى بعض كهنتهم المعارف الخارقة نفسها التي عرضها موسى أمام عرش فرعون. من الممكن أن يكون لدينا في هذه الحال تتابع منطقي مؤقت للظواهر (Part hoc) يميل الناس إلى نسبه للعلاقة السببية (Propter hoc) فقد عد الإسرائيليون موسى صانع عجائب جباراً غالباً ما أثار إعجاب أقاربه وخوفهم بعجائبه ولذلك لم يكن من الصعب عليهم أن يؤمنوا بقدرته على إرسال الكوارث العشرة على مصر تباعاً. وهكذا نرى أن العلاقات السببية المنسوبة إلى ظواهر أو حوادث مستقل بعضها عن بعض قد قامت في أساس كثير من الخرافات والأساطير الدينية. ولكن ليس لدينا أي دليل موثوق على أن الكوارث التوراتية قد حلت بمصر فعلاً في عهد ميرنيبت. وقد تكون وقعت فعلاً قبل عودة موسى إلى العاصمة رمسيس بعد ذلك بسنوات أو بعشرات السنين. ولكن هل فقدت نظريتنا مادتها نتيجة لذلك؟ من حيث المبدأ، لا، لأنه تهب لمساعدتها سمة أخرى من سمات إبداع الأساطير. وتستند هذه السمة إلى أن المسافة الزمنية بين حدثين تتناقص بالتدرج في الخيال الشعبي مع مرور السنين إلى أن يتطابقا زمنياً. ولا شك أن الإسرائيليين حفظوا في ذاكرتهم روايات شعبية عن الكوارث التي حلت بمصر تباعاً ثم نسبوها مع مرور الزمن إلى موسى يؤكدون بها على جبروته. ويبدو أن ذلك خلق لديهم شعوراً بالرضا أو الراحة النفسية، لأنه هكذا ذل فرعون المتجبر وعاقبه الله عقاباً صارماً على القساوة التي عامل الإسرائيليين بها][1] انتهى.

وقبل أن أخوض في التحليل الخاص بفهم علاقات السببية المحيطة بتلك الآيات الإلهية، لابد أن ندرك أن الله تعالى في سننه الكونية له جند من قوى الطبيعة، يسخرها كيفما يشاء، فيحبسها أو يطلقها تبعاً لحكمة يرتئيها هو سبحانه. ولنا أن نتناول فقرات كاسيدوفسكي السابقة ببعض النقد، حيث إن الظواهر المناخية السائدة والمتكررة على أرض مصر تعتبر أحداثاً تعود المصريون عليها وعلى التعامل معها، وبالتالي فإن وقوعها إبان مرحلة الخروج الإسرائيلي من مصر لا يمكن أن يمثل قوة ضاغطة إلى الحد الذي يدفع بالأحداث إلى ما صارت إليه من نتائج مأساوية عنيفة.

(١) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التورات، ص١١٨.

ولدراسة أحوال الجبهة المصرية الداخلية في تلك المرحلة[1]، نبدأ بجزئية (الملأ) أو الحاشية الفرعونية، تلك التي ظلت تحرض الفرعون وتنقاد له طاعة عمياء، وتزين له أعماله حتى قضي الأمر، ولعل رأس تلك الحاشية هو (هامان) الشخصية الثانية في البلاط الفرعوني، والذي يعني (ال آمون)، حيث إن (ها) في العبرية هي أداة التعريف، فالكلمة تعني (الكاهن الأكبر لآمون)، وقد اتخذه اليهود رمزاً للعداوة لهم على مر العصور، فرغم عدم ذكرهم له في قصة موسى وفرعون، إلا أنهم ذكروه في سفر (إستير) وهو أحد أسفار المدراشيم[2] كعدو عنيف لهم، عموماً فقد أشار النص القرآني إلى تنامي قوة كاهن آمون هذا، حتى أنه:

١. أصبح يقرن دائماً بالفرعون على قدم المساواة.

٢. كانت له مسئوليات عسكرية حربية ﴿...فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص].

٣. وكانت له سلطات ومسئوليات معمارية واسعة، وغير تقليدية، وذات صبغة دينية، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ... ﴿٣٧﴾﴾ [غافر].

وهكذا، فإن تلك المؤشرات الثلاثة، يمكن اتخاذها كمؤشر ثابت على شخصية فرعون الخروج، وخاصة في مسألة تنامي قوة الكهنة (كهنة آمون) إلى درجة الوقوف المتساوي في المرتبة مع الفرعون ذاته، وتلك مسألة غير شائعة في التاريخ المصري القديم على أغلبيته الساحقة، وفي نفس التوقيت كان يوجد هناك اشتقاق في الجبهة المصرية، حيث ظهرت كتلة سياسية ترى أن حل المسألة العبرانية يمكن أن يتم بصورة أخرى أكثر سلاماً وأقرب للحق، مما رأينا ملامحاً له في عصيان سحرة الفرعون وحكماء معابده

(١) هذا شأن قرآني صرف، لم تتطرق له التوراة مطلقاً.

(٢) الأسفار التعليمية التي كتبها الكهنة.

حتى النهاية، ورأيناه في امرأة الفرعون التي قال فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [التحريم].

ويبدو من نص الآية أن امرأة فرعون، تلك التي كانت تملك قلباً رحيماً، وكانت أماً ثانية لموسى العبراني بالتبني، فحمته رضيعاً من الموت، وكفلته شاباً يافعاً، كانت قد جاهرت بمعارضتها للفرعون، ولربما انتهى بها الأمر للعزل من البلاط الملكي، بل ومرورها بمحنة شديدة من مكائد الفرعون وحاشيته، مما جعل تلك المصرية أم موسى بالتبني تتبوأ مركزاً عقائدياً في القرآن يضارع مركز مريم العذراء أم المسيح بغير زوج.

كما نستطيع أن نرى هذا الانشقاق السياسي من قصة الرجل من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر]. ذلك الرجل الذي كان ينتمي بصلة القربى للفرعون (من آل فرعون)، أو قد يكون منتمياً بصلة القربى لامرأته المؤمنة، وكان يدير اتجاهاً أو حركة سرية مضادة للتعسف الفرعوني، يقوم على الإقناع والحجة والجدال الفكري، وقد قام هذا الرجل بحماية موسى من بطش الفرعون بذكاء فائق، حسبما يسجل له القرآن الكريم، وقد يكون هذا الرجل نفسه هو الإجابة على التساؤل السابق عن سبب ترك فرعون لموسى إبان بطشه بالسحرة وبالمؤمنين من الشعب الإسرائيلي.

أما على الجانب الإسرائيلي، فيرينا القرآن الكريم أن انشقاقاً منطقياً كان متواجداً أيضاً، يتمثل في تلك الطائفة من أصحاب الثروة والنفوذ، والذين كانت مصالحهم تحتم عليهم التحالف مع الفرعون الحاكم ضد تطلعات الشعب المطحون، وقد عبر القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]، ومثلها خير تمثيل في شخصية قارون، هذا الحاكم العبراني الثري، الذي كان متحالفاً مع الفرعون ووزيره هامان ضد شعبه، وقد اختصه الله تعالى بكارثة منفردة، هي الخسف، الذي يمكن فهمه على أنه فالق أرضي أو انهيار من تلك الأحداث التي تعقب الزلازل، يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص]

ولعل التوراة لا تخفينا في هذا المقام بأنه كانت هناك دوماً معارضة لموسى تتمثل في رؤساء العمال، تصاعدت بشكل أكبر بعد الخروج فشملت فئات عديدة من رؤساء الشعب، وكالعادة فإن التوراة لم تذكر قصة (قارون) ولا أحداثها، إنما أعاد الكهنة كتابتها بتخريج آخر وفي توقيت آخر، تحت مسمى عصيان قورح وداثان وأبيرام في صحراء سيناء، تقول التوراة: [إن مات هؤلاء كموت كل إنسان وأصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد أرسلني ولكن إن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب. فلما

فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم. وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال. فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة] (عدد ١٦ : ٢٩ – ٣٣)، وبذلك انتهوا بنفس نهاية قارون في القصة القرآنية بالخسف.

وهناك نقطة أخرى عند تلك المرحلة تسترعي الانتباه، تتعلق بالصنعة الدينية للحكم الملكي المصري، فالتوراة في سردها للأحداث، تتعامل مع الملك المصري، وكأنه ملك سياسي تقليدي، دون أية إشارة لكون هذا الملك هو الإله، أو ابن الإله، أو أقنوم للإله، أي أنه يستمد سلطته الزمنية من المكانة الدينية المنسوبة له، بصورة حرفية وليست مجازية.

أما القرآن الكريم في نصوصه، يورد ويصر على حقيقة أن الفرعون كان إلها لشعبه ويتجسد فيه الإله رع وآمون وأوزير وتحوت وبتاح وغيرهم بصورة تامة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ...﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص]، وعلى لسان الفرعون أيضاً يقول تعالى: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات]، وقال الملأ من حاشية فرعون: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ...﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]، أي يتركوا عبادتك كإله أنت والآلهة التي ولدت منها أنت جسدياً. وقد نوهنا أن بني إسرائيل أنفسهم قد خضعوا لتلك العبادات المصرية، كما قال موسى لفرعون ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشعراء]، وكما قال الملأ من آل فرعون: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون]، وأيضاً قول فرعون لموسى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء].

والخلاصة هي أن التوراة لم تتحدث مطلقاً عن طبيعة العقيدة المصرية وبالذات موضوع ألوهية الفرعون، بل إنها لم تتحدث عن صفات الله تعالى ذاته، كإله عالمي تشمل مظلة ألوهيته كافة الأحياء، وتعاملت مع الموضوع كله، طبقاً للعقائد العنصرية اليهودية، على أنه صراع بين إله إسرائيل الخاص والعنصري (يهوه)، وبين شعب آخر له صراع مادي بحت مع شعب إسرائيل.

ولنا أيضاً أن نقرر أن طبيعة العقيدة المصرية، قد ذكرت في القرآن الكريم في كثير من المواضع، وأثبت فك نقوش تلك الحضارة صدق ما أخبر به القرآن الكريم.

وهكذا كان لابد للأحداث أن تنتقل إلى مرحلة الاصطدام الأخير، عندما وصل اختلال توازن القوى إلى حد معين، تقول التوراة أن كارثة موت أبكار ذكور المصريين قد أوصلت الفرعون لمرحلة من الانهيار المعنوي التام، فأذعن لكل طلبات موسى بالخروج الكامل للإسرائيليين مع كل ممتلكاتهم، وسانده في ذلك القرار المصريون جميعاً، فخرج كل الشعب الإسرائيلي في ليلة واحدة وعلى عجل، وهنا فإن لنا عدة ملاحظات:

١. كان تعداد الشعب عند الخروج [ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً] (خروج ١٢ : ٣٧ – ٣٨)، أي أن التعداد العام كان ما بين ٢ – ٣ مليون نسمة مع أعداد هائلة من الماشية تخرج كلها في وقت واحد وعلى عجل.

٢. على العكس مما قد يتخيله المرء، فقد خرج العبرانيون بصورة منظمة [بحسب أجنادهم] (خروج ١٢ : ١٥) – أي بحسب فرق عشائرهم الاثنى عشر.

٣. استطاع العبرانيون الحصول على ثروات هائلة من المصريين إبان الخروج، وقد ادعوا أن ذلك تم عن طريق التحايل [وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين] (خروج ١٢ : ٣٥ – ٣٦)، وكذلك [فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين] (خروج ٣ : ٢١ – ٢٢). ولاحظ هنا في النص الأخير تجاور المصريين مع العبرانيين، بل إن بعض العبرانيين كان يمتلك بيتاً أو مساكن يؤجرها للمصريين.

وعلينا أن نراقب أيضاً هذا القول: [وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر. وأخذ موسى عظام يوسف معه] (خروج ١٣ : ١٨ – ١٩). أي متسلحين متأهبين للقتال.

أي أن هذا الشعب كان مسلحاً، ولديه تعداد كبير من المحاربين، وغنم أطناناً من الذهب والفضة والجواهر، وعشرات الألوف من رءوس الماشية، بل إننا نستطيع القول بأن نبش قبر يوسف وحمل عظامه، إنما كان نبشاً لقبر وزير فرعوني متمصر، مدفون بالطريقة المصرية، وبين مقابر رجال الدولة في مصر، تلك المقابر الممتلئة بأطنان من الذهب والمعادن النفيسة، ولا ندري ما هو مقدار التورع الذي كان على العبرانيين ممارسته لعدم نبش القبور الملكية الفرعونية، قبور ملوك أعدائهم، والممتلئة بكنوز لا توصف، رغم امتلاكهم للأسلوب والوقت والقدرة؟!

في الواقع، إن شظايا تلك النصوص التوراتية، تشير بشكل واضح إلى قيام هؤلاء المسلحين العبرانيين، والذين كانوا منظمين قبلياً وعشائرياً، بعمل إغارات واضطرابات هائلة، ربما امتدت لأعالي مصر في منطقة الصعيد، حدث أثناءها عمليات نهب للقبور الملكية الفرعونية، وربما المعابد وبيوت الأفراد، بشكل مخيف، مما أدى إلى تجمع ثروات هائلة لديهم، لذا لا نعجب من الرواية التوراتية التي قالت إن الفرعون عاد وتراجع وندم على إطلاق الإسرائيليين، فقرر تتبعهم وإبادتهم بأقوى قوات عسكرية استطاع أن يجمعها.

وبالمثل، نستطيع القول أن القرآن الكريم، رغم أنه لم يعط إيحاءات مباشرة على حدوث عمليات النهب هذه، إلا أن استعمالها في صناعة العجل الذهبي، ذلك الوثن الذي أصبح أشد خطايا بني إسرائيل بعد الخروج، يشير إلى أن الله تعالى لم يكن قد حنن عليهم قلوب المصريين فأعطوهم ذهبهم، ليصنعوا به هذا الكفر، كما ادعت التوراة، بل ينبغي لنا أن نراقب الحوار بين موسى وقومه بعد صنعهم العجل، إذ قالوا لموسى: ﴿... وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ...﴿٨٧﴾﴾ [طه]، وعبارة (حمل الوزر) عبارة قرآنية مشهورة تعني دائماً تكسب الذنوب، ولعل حقيقة أن الله تعالى قد ختم قصة العجل ذاتها، وفي نفس السورة بالآيات ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ [طه]، لتبيان ساطع على أن حمل الوزير هو تعبير يساوي اكتساب ذنب عظيم قد يرقى لمقام الكفر ذاته.

كما أن نص الصراع الأخير بين فرعون والإسرائيليين، كما جاء في سورة الشعراء، يمكن فهمه على أنه يشير ليس فقط إلى حصول بني إسرائيل على كنوز

المصريين، بل وأيضاً إلى احتلالهم أجزاء من مصر نفسها، تلك الأجزاء والمدن التي أخلاها الفرعون من جنودها، بعد أن استدعاهم لتتبع بني إسرائيل، يقول تعالى عن آل فرعون: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء]، كما أن نصوصاً قرآنية أخرى، قد تدل على حدوث تدمير ما في الأراضي المصرية، يتجاوز ما حدث عند عبور البحر، مثل قوله تعالى: ﴿ ...وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف]، أي أن حادثة الخروج الإسرائيلي قد تكون اقترنت بتدمير الكثير من المنجزات المصرية بما فيها المباني الملكية نفسها.

أما عن محاولة الربط التاريخي لتلك الأحداث التي واكبت الخروج، فقد أورد زينون كاسيدوفسكي: [إن ما يثير الدهشة في هذين النصين[1] هو غياب الترابط المنطقي لأن الحديث يجري فيهما عن الاستدانة من المصريين ونهبهم في الوقت نفسه. ماذا يعني هذا بالضبط؟ لنفرض أن الإسرائيليين استطاعوا خداع المصريين وأخذوا منهم أواني الفضة والذهب لمدة ثلاثة أيام يؤدون خلالها شعائرهم الدينية في الصحراء – كما أكدوا لفرعون – ثم يعيدونها إلى أصحابها فور عودتهم. ولكنه من الصعب أن نصدق أن المصريين كانوا على درجة من السذاجة بحيث يضعون مثل تلك الثروة بين يدي ناس يحتقرونهم ويكنون لهم العداء. أما بعض العلماء فيرى أن الإسرائيليين انتفضوا ونهبوا البيوت المصرية وهربوا خارج حدود مصر. وما يدعم مثل هذا الاستنتاج أن الإسرائيليين استطاعوا تحقيق انتصارات عسكرية أثناء تجوالهم في الصحراء. وهذا يعني أنهم خرجوا من مصر مسلحين تسليحاً جيداً. ولكن من أين حصلوا على الأسلحة؟ لا ريب أن تسليح مثل هذا العدد الكبير من الناس لا يتم في غضون يوم واحد. إذاً لقد بدءوا تخزين السلاح سراً خلال السنوات الأخيرة من عبوديتهم في مصر. ولذلك فلا يستبعد أنهم انتزعوا حريتهم بقوة السلاح. وإذا كان الأمر كذلك يصبح مفهوماً لماذا طاردهم فرعون حتى البحر الأحمر. وعليه فإننا نستطيع أن نفترض – على ضوء هذه النظرية – أن موسى هو الذي قاد انتفاضة الإسرائيليين في المرحلة الأولى من نشاطه][2] انتهى.

---

(١) النصان التوراتيان اللذان أوردناهما سابقاً.

(٢) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التورات، ص١٠٧-١٠٨.

وهكذا في نهاية تلك الأحداث، نجد أن بني إسرائيل قد تجمعوا فارين باتجاه الشرق، حيث وقعوا في مصيدة قاتلة، فالبحر من أمامهم، والعدو من خلفهم في قوات عسكرية ضخمة، وبدا الوضع يائساً، فالقوات الفرعونية قد أصبحت قريبة، بل إن طلائعها أصبحت على مرمى البصر، ويبدو أن الأمر كله كان مفاجأة لفرعون مصر الذي لابد وأن استغرق بعض الوقت لتجميع وحشد جنود قواته من المدائن المصرية، كما أعطى العبرانيين فرصة معقولة للتجمع والخروج بشكل منظم كل حسب عشائره.

وعند تلك المرحلة نصطدم بعدة أسئلة تاريخية منها:

لماذا فضلت قبائل العبرانيين الخروج باتجاه الشرق، بدلاً من التشبث بمواقعها في الأرض المصرية الخصبة؟! أو لماذا قررت، أن تعود ثانية لتلك الأراضي المجدبة التي غادروها منذ قرون لفقرها؟

ما الموقع الجغرافي الذي حدثت عنده واقعة الخروج؟

ماذا حدث على الجانب المصري بعد تلك الكارثة؟

لماذا توقفت مصر، بعد أن استعادت عافيتها، عن متابعة هؤلاء القوم الذين ظلوا - ولأربعين سنة - تائهين في صحراء سيناء المصرية، على مرمى حجر من الحاميات المصرية؟

من المعروف تاريخياً، في الزمن القديم، تعدد الهجرات البشرية الضخمة، لأسباب اقتصادية أو عرقية أو سياسية - دينية، وتتشابه تلك الهجرة الإسرائيلية التي ترويها لنا النصوص مع معظم تلك الهجرات، من حيث الدوافع والأسلوب والنتائج، وعموماً ينبغي علينا أن نتذكر أن هؤلاء القوم قد وفدوا إلى مصر مبدئياً ضمن هجرة واسعة مماثلة ولأسباب اقتصادية تتمثل في دورة جدب وجفاف قاسية اجتاحت المناطق الغربية من آسيا، دفعت بهم للهجرة أولاً من مناطق بين النهرين وحوض الفرات، إلى أرض كنعان، ثم إلى مصر، ثم رجوعاً لأرض كنعان، لاهثين دوماً خلف أسباب الحياة الأسهل، دون أن يتعلقوا بمنطقة معينة، أي أنهم كانوا دوماً تعبيراً صادقاً عما أطلقوا عليه (شعب بلا وطن)، لذلك فإنه لحدوث تلك الهجرة كان ينبغي أن تتحول مصر إلى منطقة طرد في الاتجاه المضاد لتلك القبائل التي ظلت على مر التاريخ تتربص للوفود إلى

مصر، إما للإغارة أو للإقامة الدائمة، مما يعني وجود تدهور مرعب في الأحوال المصرية حينذاك، اقتصادياً في المقام الأول، ثم سياسياً وحربياً وثقافياً، وهكذا فلم يكن هناك حافز لتلك القبائل للتشبث بالأرض، ناهيك عن التوغل داخل أرض مصر ذاتها، وعلى الجانب الآخر، فليس هناك أيضاً أي تصور منطقي، أن وجهة تلك القبائل المهاجرة كان قفزة تاريخية هائلة نحو المجهول، فقد سبق زمن خروجهم هذا بقليل، نجاح هجرة جماعية حربية مماثلة قامت بها طلائع من الشعوب الهندو أوروبية التي احتلت مناطق جنوب اليونان والبلقان وجزر بحر إيجا، والتي عرفت باسم (شعوب البحر) والتي منها شعب البلست، والذي سمي لاحقاً (الفلسطينيون)، وهم جزء من الشعوب التي احتلت مناطق شمال أفريقيا أيضاً، وتم كسر موجات هجومها على مصر على زمن (رعمسيس الثالث)، تلك الشعوب التي عرفها المصريون باسم اللوبيون أو (المشوش)، وتلك الكلمة الأخيرة بالذات هي التي تحورت إلى (ماجوج)، ذلك المسمى التوراتي الذي يصور ويمثل تلك الجحافل الكثيفة جداً من غزاة الشمال. ومن هنا فإن ظهور كلمة (الفلسطينيون) في ترنيمة موسى التوراتية، والتي اعتبرها المؤرخون بالإجماع خطأ واضحاً لخطئهم في تحديد زمن الخروج، واعتباره واقعاً بين زمني (رعمسيس الثاني) أو ابنه (مرنبتاح)، حيث لم يكن لشعب الفلسطينيين (البلست) وجود بعد، خطأ من جانب المؤرخين أنفسهم، حيث إن شعب الفلسطينيين كان قد وفد واستقر بالفعل على سواحل أرض كنعان قبل الخروج الإسرائيلي من مصر كما سنوضح لاحقاً.

والخلاصة أن نجاح هذا الشعب المغامر في غزو أرض كنعان وتثبيت قواعد له فيها، كان من أسباب إغراء القبائل الإسرائيلية بإمكانية تحقيق وتكرار نفس النجاح، كما أنه يمكن أيضاً افتراض أن مهمات التجسس التي قام بها بنو إسرائيل على أرض كنعان، والتي ذكرت التوراة أنها قد تمت قرب نهاية مدة التيه في سيناء[1]، قد حدثت بالفعل قبل اتخاذ قرار الخروج الإسرائيلي، للتعرف على مدى ثراء تلك الأرض، والذي عبرت عنه التوراة بـ(الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً)، ومدى قوة سكانها، والذين لا تقاس قوتهم كشعوب صغيرة مفتتة ومتطاحنة، بل بقوة إمبراطورية هائلة من شعب واحد وقيادة موحدة مركزية كالحال في مصر، كما يمكننا أيضاً افتراض أن فترة لجوء

(١) على زمن يشوع بين نون الذي نصبه موسى عليه السلام قبل وفاته قائداً على بني إسرائيل.

موسى عليه السلام لأرض مدين، المتاخمة لأرض كنعان، بل التي هي جزء جغرافي وتاريخي منها، أعطته المجال الكافي لدراسة أوضاع المنطقة من كل الزوايا والاتجاهات. هكذا يمكننا القول إن العناية الإلهية قد هيأت الظروف من كل الاتجاهات لحدوث تلك العملية التاريخية، والتي كانت بداية لتنزل الرسائل السماوية على الأرض، في مناخ ملائم لنموها، في معزل عن قوى الشرك الهائلة المطبقة على المعمورة حينذاك، واختارت مشيئته تعالى شعباً لا وطن له، إلا العقيدة، ليترعرع وليكون مثلاً على القدرة الإلهية التي ضربت به أقوى قوة على وجه الأرض حينذاك.

أما عن نقطة الخروج ومراحله، فتحدثنا التوراة أن بني إسرائيل قد اتخذوا أولاً طريقهم باتجاه الشرق، ثم اتجهوا جنوباً وعبروا ثانية للشرق من نقطة ما هناك، حيث حدثت معجزة العبور بعد انفلاق البحر، وعن التحليل التاريخي، ومحاولة إيجاد مسببات مادية لمعجزة العبور، أورد زينون كسيدوفسكي ما نصه:

[أما عبور البحر الأحمر فلا يزال حتى الآن موضوع نقاش حاد بين الباحثين، فهذه المسألة العويصة يربطها العلماء بتحديد طبغرافيا الطريقة التي سلكها موسى فعلا، ويحدث أن نصادف في بعض الكتب الشعبية تأكيداً على أن طريق خروج الإسرائيليين من مصر قد تم تحديده فعلاً على أساس الرواية التوراتية والاكتشافات الآثارية ولكن الحقيقة هي أنه ليس لدى العلم الحديث مثل هذه الثقة. ويبدو أن هذا التأكيد السخيف يهدف إلى إثبات أن موسى عبر البحر الأحمر وتوجه مباشرة إلى جبل سيناء الذي دمجت التوراة بينه وبين جبل آخر يقع على الرأس الجنوبي لشبه جزيرة سيناء. ويجب أن نشير هنا إلى أن الأسطورة التوراتية تحوي نقاط ضعف جدية وفيها كثير من التناقضات والسكوت عن معلومات كثيرة ولذلك يصعب علينا أن نتبين الصورة الواضحة لخط سير موسى.

ولا يطابق الآثاريون بثقة تامة الأطلال التي تم اكتشافها بالمواقع التي جاءت التوراة على ذكرها. فمدينة مجيدو مثلاً كانت نقطة هامة على طريق الإسرائيليين. ولكن كلمة مجيدو تعني باللغتين المصرية واليهودية القديمتين «حصن»، «برج محصن»، أما الأماكن التي تحمل هذا الاسم فقد اكتشفت كثير منها.

وهكذا نرى أن محاولات إعادة رسم خط سير الخروج من مصر لا تزال مجرد فرضيات. ويشار الآن إلى ثلاث طرق محتملة: الطريق الجنوبية والوسطى والشمالية. ويعد تحديد مراحل هذه الطرق عملاً شاقاً يتطلب كثيراً من الوقت والجهد. فمنذ ثلاثة آلاف سنة كان الطرف الغربي للبحر الأحمر، الذي ينتهي اليوم في قناة السويس، يمتد عميقاً جداً باتجاه الشمال حيث يتصل بالبحيرات المرة. وكانت الأبحاث الجيولوجية قد أثبتت هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك. أما الآن فقد غمرت مياه قناة السويس ذلك المكان غير أنه في زمن ما كانت توجد هناك أماكن مياهها ضحلة تتخللها مستنقعات وبقع ضيقة من اليابسة. أما البحر الذي عبره الإسرائيليون دون أن تطأ أقدامهم المياه فيسمى باللغة اليهودية القديمة (يام – سوف)، أي (بحر القصب). وفي العهد الجديد فقط نصادف تأكيداً يزعم أن الحديث إنما يجري عن البحر الأحمر. ولكن ساحل البحر الأحمر لم يعرف القصب يوماً كما لا يعرفه الآن ولكنه نما بغزارة في مناطق المستنقعات والممرات الضحلة وبقع اليابسة.

ومن هنا نستنتج أن يام – سوف التوراتي هو نفسه البحيرات المرة، وحينئذ يغدو من السهل جداً أن نفهم أعجوبة موسى. فقد استطاع الإسرائيليون أن يعبروا بسهولة ويسر بين المستنقعات والأماكن الضحلة مستخدمين المخاضات والممرات الضيقة. بينما وقع المصريون مع عرباتهم الثقيلة في منطقة المستنقعات. وقد يكونون غرقوا فيها فعلاً لأن تلك المنطقة تعد ممراً لعواصف شمالية غربية قوية كانت تحمل معها أمواجاً هائلة من المياه تغمر المنطقة مشكلة فيها على حين غرة عمقاً كبيراً ما يلبث أن يرتد.

تبدو لنا هذه الفرضية مقنعة تماماً. ولكنها تتسم لسوء الحظ بجانب ضعيف واحد. فالمصريون لابد وأنهم كانوا يعرفون أطراف البحيرات المرة معرفة جيدة وينبغي علينا أن نعتقد أنهم كانوا على علم أكيد بالمصائد الخطرة فيها، إذاً لماذا لم يتصرفوا بحذر، وخاصة أن الفرعون نفسه قاد الجيش المصري ورافقه أفضل قادة ذلك الجيش وأكثرهم حنكة؟!، ويصعب علينا كثيراً أن نتهمهم بضعف الخبرة أو بقلة الحذر. وهكذا أصبح من الضروري أن نبحث عن تفسير آخر لأعجوبة موسى هذه.

لقد حظيت فرضية المستشرق الفرنسي بيير مونتيه باعتراف أكبر جمع من المختصين انطلق الباحث من افتراض مؤداه أن الإسرائيليين انطلقوا باتجاه الشمال فور

خروجهم من رمسيس عاصمة المصريين ثم ساروا بمحاذاة البحر المتوسط حتى حدود كنعان. ولكنهم اصطدموا في طريقهم بالتحصينات المصرية ومقاومة شعوب السواحل الذين أطلقت عليهم التوراة خطأ اسم الفلسطينيين. هذا كله أرغم الإسرائيليين على أن يتجهوا فجأة نحو الجنوب.

والواقع أنه ثمة تنويه في التوراة يدعم افتراض سير الإسرائيليين نحو الشمال أولاً. فالتوراة تصف مدينة مجيدو أنها آخر مدينة في شمال مصر. وكان علماء الآثار قد اكتشفوا أطلالها مؤخراً في أبو حسن. ولقد جاء في سفر الخروج ما يلي: [كلم بني إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجيدو والبحر أمام بعل صفون]. ونحن نعرف الآن أن بعل صفون كانت مركزاً هاماً لعبادة الإله الكنعاني بعل صفون الذي تعني الترجمة الحرفية لاسمه (سيد الشمال). ونشير في هذا السياق إلى أن الإغريق دمجوه بنرفس كاسيوس. وبنوا معبده على قمة هضبة مونس كاسيوس الواقعة في الشريط الضيق الممتد بين البحر المتوسط وبحيرة سيربونيس التي تسمى اليوم بحيرة البردويل.

ويرجح أن يكون الإسرائيليون قد اختاروا الطريق القديمة المعروفة التي استخدمها الرحالة، وهي الطريق التي تمتد على ساحل المتوسط في الشريط الضيق الذي يفصل هذا البحر عن بحيرة سيربونيس. ولقد استخدم الرومان فيما بعد تلك الطريق نفسها غير مرة، وفي عام ٦٨ قبل الميلاد قاد الإمبراطور الروماني تيطوس جيوشه عبر تلك الطريق إلى فلسطين.

تتوضع بحيرة سيربونيس في بقعة تنخفض عن سطح البحر عدة أمتار وغالباً ما تجف مياهها لدرجة يصبح معها العبور فيها لا يشكل أي خطر على المشاة أو العربات. وقد وقعت هنا كوارث عدة عندما كان الإغريق يحكمون مصر. إذ كانت العواصف التي تهب فجأة على البحر المتوسط تغرق هذا الشريط الضيق من اليابسة الأمر الذي يؤدي إلى غرق الرحالة المتواجدين فيه عندها والذين لم يمروا من هنا إلا لكي يختصروا طريقهم.

وعلى أساس هذه المعطيات أعاد بيير مونتيه رسم خط سير الأحداث التي وصفتها التوراة. لقد استطاع الإسرائيليون أن يعبروا الممر الضيق ويقتربوا من الشاطئ

الشرقي للبحيرة الجافة. أما المصريون فقد أرادوا محاصرة الهاربين وقطع طريقهم ولذلك اختاروا العبور فوق قاع البحيرة التي جفت مياهها. وعندما وصلوا إلى وسط ذلك الدن الهائل هبت على المتوسط فجأة عاصفة شمالية هوجاء، حملت معها أمواجاً عاتية أغرقت المكان بمن فيه. وكان عرض البحيرة عشرين كيلو متراً وطولها سبعين كيلو متراً. أما الضفة التي كان يمكن للمصريين أن يلجئوا إليها فقد كانت لا تزال بعيدة عنهم كثيراً. وهكذا لاقوا حتفهم غرقاً]. انتهى[1].

وعموماً، فإن تلك الفرضيات التي أوردها كاسيدوفسكي، تبدو أكثر عقلانية من فرضيات أخرى، ولكنها كلها فرضيات قابلة للنقاش، قد يهمنا مما ذكر كاسبيدوفسكي السطر القائل: [شعوب السواحل الذين أطلقت عليهم التوراة خطأ اسم الفلسطينيين]، وهنا يبدو أن كاسيدوفسكي كان مقتنعاً بأن الخروج حدث فعلاً على أيام رعمسيس الثاني أو مرنبتاح، حيث لم يكن لشعب الفلسطينيين وجود على سواحل كنعان، أما نحن فنرى أن النص التوراتي صحيح تماماً، ويرتبط فعلاً بالمرحلة التاريخية اللاحقة التي حدث فيها الخروج فعلاً، حينما كانت طلائع هذا الشعب (الفلسطينيين) قد توطنت بنجاح في تلك المناطق، يقول النص التوراتي: [وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة. لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر] (خروج ١٣ : ١٧)، كما نرى في ترنيمة موسى التي قالها بعد الخروج مباشرة، قد ذكرت هذا الشعب ضمن الشعوب التي أصابها الذعر من ضربة الله للمصريين: [يسمع الشعوب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين] (خروج ١٥: ١٤).

أما عن تصورنا نحن لنقطة الخروج، فإنه لابد وأن نعود بجانب النصوص، للشكل الطبوغرافي لمناطق الأحداث[2]، وعلينا أن نتذكر أن نقطة الخروج التي أوردتها التوراة، كانت (سهول صوعن)، وصوعن هذه هي (زعنت) أو(زوعن) التي هي مدينة (تانيس) أو (بر رعمسيس) [3]، أو (أواريس)، وكلها كانت أسماء لمدن متعاقبة بنيت

(١) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التورات، ص١١٤-١١٦.
(٢) انظر الخريطة الملحقة بالعهد القديم والتي توضح سيناء وفلسطين.
(٣) عاصمة رعمسيس الثاني التي قالت التوراة أنها نقطة الخروج.

على أنقاض بعضها البعض، وأنها طوال التاريخ كانت عاصمة الهكسوس الإسرائيليين حسب الوثائق المعتمدة، ولنا أن نذكر أن تلك المدينة الواقعة ضمن أرض جاسان كانت محاطة بالمياه، حيث إن أحداث حصارها الأول على أيام الملك أحمس الأول، وحسبما جاء في السيرة الذاتية للجندي المصري (أحمس بن أبانا) حدث حول المياه، حينما كان المصريون يحاصرون أواريس ومن فيها من الهكسوس المتمترسين خلف موانع مائية، ودارت مناوشات لفترة طويلة، انتهت باقتحام المصريين للموانع المائية، وهروب الهكسوس باتجاه الشرق. لذا فمن الممكن جداً افتراض أن نفس الأحداث تكررت ثانية عند (خروج موسى) أي خروج الإسرائيليين أو الهكسوس الثاني، الذي حدث من نفس النقطة حسب الوثائق التي تشرح (حرب الأنجاس)، هؤلاء الذين خرجوا من مدينة بر رعمسيس التي أسمتها التوراة رعمسيس، وعلينا أيضاً افتراض أن نقطة الاصطدام المائية لم تكن عبر مستنقعات البحيرات المرة كما ذهب زينون كاسيدوفسكي مؤيداً لحد ما للنص التوراتي، كما لم تكن قاع بحيرة البردويل في شمال سيناء، كما ذهب بيير مونتيه، بل إنها نقطة ما تقع عند التقاء بحيرة المنزلة المحيطة ببر رعمسيس مع قناة مائية نيلية، والخرائط الطبوغرافية لتلك المنطقة ترينا أن أحد فروع النيل الكبرى في الشرق كان متواجداً حينذاك، وليس قناة نيلية فقط، وكان يصب في بحيرة المنزلة، كما أننا نستطيع أن ندلل على ذلك من اللفظ التوراتي المستعمل لنقطة الخروج المائية وهو (فم الحيروث) أو فم الحرية، ومن المسلم به أن كلمة (فم) جغرافياً تعني التقاء مجرى مائي ضيق مع مجرى مائي أوسع، لخلق منطقة تصلح كميناء، مثل قولنا في مصر (فم الخليج)، و(ثغر الاسكندرية)، وما شابه ذلك، وقد نستطيع من النصوص الدينية إيجاد مؤشرات على ذلك، فمثلاً رغم أن التوراة تشدد على أن العبور تم من منطقة بحرية، إلا أن نصاً آخر في سفر الخروج يقول عن تذمر بني إسرائيل لعدم وجود الماء في صحراء سيناء، وحادثة انبجاس عيون الماء [فصرخ موسى إلى الرب قائلاً ماذا أفعل بهذا الشعب. بعد قليل يرجمونني فقال الرب لموسى مر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل. وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب] (خروج ١٧ : ٤ – ٥)، وهكذا نرى موسى يضرب بحراً في بعض النصوص، ونهر النيل في نصوص أخرى. بل إن حادثة حرق وتذرية بقايا العجل الذهبي الذي صاغه بنو إسرائيل، لا نزال نراه

مرات يحدث في البحر، ومرات أخرى في النهر، مثل النص: [وأما خطيئتكم العجل الذي صنعتموه فأخذته وأحرقته بالنار ورضضته وطحنته جيداً حتى نعم كالغبار. ثم طرحت غباره في النهر المنحدر من الجبل] (تثنية ١٩ : ٢١). وهكذا فالتوراة تقرر أن الأحداث حدثت عند البحر مرات، وعند النهر مرات أخرى. ولنا أن نقول إن الأحداث حدثت بالفعل في منطقة ما عند التقاء النهر بالبحر، مما أسمته التوراة (فم الحيروث)، وهو طبعاً اسم كهنوتي لمنطقة ما من الممكن أن نفترض نحن أنها مدينة (فيتوم) التي ذكرت التوراة أن الفرعون استعمل بني إسرائيل في بنائها، والتي تعني فم أو ثغر آتوم، تلك التي تعني (فم الإله آتوم) هي نفسها التي أطلق عليها كاتبو التوراة (فم الحرية) أو (فم الحيروث).

وهذا، مع الأخذ في الاعتبار بأن منطقة (يم سوف) أي بحر القصب أو بحر الغاب هي في الحقيقة منطقة المستنقعات المحيطة بالجزء الجنوبي من بحيرة المنزلة.

أما عن الأحداث التي دارت في مصر بعد الخروج، فهذا ما لا تخبرنا عنه التوراة، ولنا أن نفترض أن دولة كبرى مثل مصر ظلت رائدة على مر التاريخ القديم كله، قد تعافت في النهاية من تلك الضربات الاقتصادية الحربية، بعد فترة اعتماد على الذات، عانت فيها من الاضطرابات والقلاقل ومعقبات الكارثة البيئية والصراع على السلطة (بعد موت وغرق الحاشية الفرعونية)... إلخ، بشكل مماثل لما يحدث بعد القلاقل التي تجتاح الأمم في مثل هذه الظروف، وما حدث قبلاً في عهد الدولة المصرية القديمة من انهيار شامل، وكانت تلك الفترة كافية لخروج بني إسرائيل من تيه صحراء سيناء ودخولهم أراضي كنعان[1]، ليبدأ فصل جديد من علاقات الجوار السلبية والإيجابية بين الشعبين المصري والإسرائيلي، إلا أنه يمكننا القول بأن تغييراً ما قد حدث في نظام الحكم في مصر، مع تغلب شعوب أخرى على الملك في مصر، وهذا هو عين ما حدث بعد إزاحة أسرة الرعامسة الثانية (الأسرة ٢٠)، وأسرة الكهنة الضعيفة (الأسرة ٢١) التي تلتها مباشرة، وتولى اللوبيون والكوشيون والفرس والإغريق... إلخ كفراعنة وحكام لمصر.

يقول الدكتور سليم حسن عن الخاتمة المفجعة لتلك المرحلة المضطربة من تاريخ مصر ما نصه: [وهكذا نجد أنه بنهاية الأسرة العشرين انقسمت مصر إلى مملكتين شبه

(١) كانت فترة التيه ٤٠ سنة كما ذكرت المصادر الدينية والتاريخية.

مستقلتين: مملكة الكهنة في «طيبة»، ومملكة «سمندس» وأسرته في «تانيس» التي كانت من أعظم البلاد شهرة من الوجهة الدينية في الوجه البحري، ثم انتهى الأمر بزوال ملك الكهنة وملوك «تانيس» بتولي طائفة من الأجانب وهم اللوبيون عرش البلاد. ومن هذه اللحظة أخذت مصر تتقلب في محن وانقلابات كان الدور الهام فيها ما قام به حكام البلاد المجاورة عندما لمسوا ضعف مصر، فأخذوا ينقضون عليها من الجنوب والشمال إلى أن قضي على استقلالها نهائياً في عهد الفرس]. انتهى[1]

تلك الحقيقة التاريخية التي يمكن على ضوئها تفهم الآية القرآن الكريمة ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان].

ولعل تلك الآية القرآنية الأخيرة، لأعجوبة محيرة خطيرة في حد ذاتها، إذ أنها تعكس فكرة عقائدية مصرية قديمة تتعلق بموت العظماء، وهي بكاء السماء والأرض عليهم، مثلما كانت متون الأهرام تقول: [يقول المحزونون على الملك: «السماء تبكي من أجلك، والأرض تزلزل من أجلك»][2].

وهكذا فقد تم الفصل بين الشعبين المصري والإسرائيلي في النهاية من ناحية التلاصق الجغرافي والتداخل الديموجرافي، لتستمر فصوله في التاريخ القديم بأشكال أخرى لم تنقطع، أهمها الرواسب الثقافية المصرية التي كونت العمود الفقري للفكر العبراني الذي وصلنا على شكل وثيقة التوراة المسماه العهد القديم.

ويبدو أن المصريين قد اقتنعوا – حسب عقائدهم – بأن الطرد للأعداء خارج جسم الأرض المصرية الأم، كاف لهؤلاء العبرانيين، مما يمكن فهمه في أحوال متعددة على أنه انتصار في حد ذاته، مما لا يستدعي تعقباً في الصحراء القاحلة في وقت لاحق، ويمكن فهم تلك النقطة، بتأمل تلك الفقرة من نص المسرحية الدينية لتغلب الإله (حور) على عدوه (ست)، والذي ينعت نفسه فيه قائلاً: [الأسد المتفوق في «ختت آبت»، والذي يطرد «ست» (عدوه) إلى الصحراء، والحارس الطيب للأرضين وشاطئ

(١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٨، المقدمة، الصفحة (ص).
(٢) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج١٨، ص٦٣.

النهر، والحامي الذي يحمي مصر]، وتلك الفقرة تعني ببساطة أن جسم الوطن الأم، الذي حرص عليه الفكر المصري القديم، كان ممثلاً في الوجهين القبلي والبحري، وما حول شواطئ النيل، أما نفي وطرد الأعداء للصحارى، فكان يمثل انتصاراً بالغاً يطمح إليه أي حاكم.

وطبقاً لافتراضاتنا حول تاريخ الخروج كما سنورد لاحقاً فإن مصر قد وقعت وسط فتنة ثورة شعبية يحركها الجوع والظلم، تلك الفترة التي أدت إلى هروب آخر حكام الرعامسة الضعاف إلى السودان (كوش)، طلباً للحماية تحت المظلة الدينية لكهنة آمون، الذين انتزعوا الحكم تماماً في تلك الحقبة، وانتهى الأمر بتقسيم مصر ثانية إلى وجه قبلي واقع تحت سيطرة الكهنة، ووجه بحري تحت تأثير أسرة فرعونية أخرى (فراعنة تانيس)، والتي ربما كانت تحمل أصولاً غير مصرية بالمرة، إذا أخذنا نصوص التوراة في الاعتبار، تلك النصوص التي تضفي اسم الإله المعبود لتلك الأسرة (با نب دد) والتي تعني (كبش تانيس)، على أعداء إسرائيل دوماً، سواء من الأدوميين والآراميين على سبيل المثال، وعلى صورة اسم (هدد بن بدد)[1]، أي أن اسم العدو الإسرائيلي الذي يظهر بصورة نمطية إنما هو تركيب مزجي كهنوتي، أطلقوه على أسماء ملوك معادين، ويعني في الحقيقة (البعل + روح أوزير = بنبدد)، أو بشكل آخر مباشر يسمونه في مواضع أخرى (هدد عزر) أي (هدد أوزير) أو (البعل وأوزير) الإلهيين أعداء يهوه مجتمعين.

أيضاً على الجانب المصري، فإن نفوذ الجنود المرتزقة اللوبيين القادمين من الأراضي التي احتلوها في جنوب اليونان والبلقان وجزر البحر المتوسط (المشوش والتحنو)، قد أخذ في التنامي بشكل مطرد ومخيف حتى انتزع حكم مصر في النهاية، وهؤلاء كانوا يمتون بصلة العرق للقبائل التي احتلت الساحل الكنعاني (البلست أو الفلسطينيون)، وهذا العامل يمكن أن يعزى إلى كثير من حقائق التاريخ مثل التفوق الدائم لقبائل البلست على قبائل إسرائيل، ليس في مرحلة القضاة وحسب، بل وعبر كل التاريخ الإسرائيلي الذي ظلت فيه مناطق الفلسطينيين مستقلة وخارجة عن أي حكم إسرائيلي مهما بلغ شأنه. تقول التوراة عن هذه العلاقة العرقية – السياسية: [كما مشى عبدي

(١) هدد = بعل، بنبدد = بانب دد = كبش منديس = روح أوزير.

إشعياء معرى وحافياً ثلاث سنين آية وأعجوبة على مصر وعلى كوش هكذا يسوق ملك آشور سبي مصر وجلاء كوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة ومكشوفي الأستاه خزياً لمصر، فيرتاعون ويخجلون من أجل كوش رجائهم ومن أجل مصر فخرهم، ويقول ساكن هذا الساحل[1] في ذلك اليوم هو ذا هكذا ملجأنا الذي هربنا إليه للمعونة لننجو من ملك آشور فكيف نسلم نحن] (إشعياء ٢٠ : ٣ – ٦).

وفي ذلك النص إشارة قوية إلى التحالف الفلسطيني – المصري الذي كان تحت حكم الماشوش حينذاك. أما حزقيال فيتحدث عن الماشوش وعن تركيبة جندهم: [فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة] (حزقيال ٣٨ : ٥)، ثم يردف لعنته قائلاً: [وأرسل ناراً على ماجوج[2] وعلى الساكنين في الجزائر[3] آمنين فيعلمون أني أنا الرب] (حزقيال ٣٩ : ٦).

أي أنه كانت علاقة لا شك بها تربط بين قبائل الماشوش وبين قبائل البلست التي أذاقت شعب إسرائيل ويلات العذاب.

وإلى هنا ننهي فرضياتنا عن منطقة الخروج وسرد وقائعها التاريخية، شارعين مسرعين بإذن الله تعالى في فك أحجية زمن الخروج الإسرائيلي ومن هو فرعون الخروج الذي حار فيهما العلماء كثيراً، مستندين نحن في ذلك إلى الوثائق التاريخية والدينية المتمثلة في التوراة والقرآن ومذاهب الديانات المصرية القديمة.

مما سبق وشرحناه نستطيع أن نلخص ملامح حقبة الخروج الإسرائيلي من مصر والتي أشرنا إليها كل في موضعه بالتالي:

مرور مصر بدورة انهيار وتداعي شديدة، شملت كل مظاهر الحياة:

أ) اقتصادياً: مما يتمثل في ضربات الجفاف والطوفان والأوبئة وتلوث مياه النيل والكوارث البيئية الأخرى، وما نتج عن ذلك من مضاعفات مؤكدة على المستوى الاجتماعي والسياسي والعسكري.

(١) ساكن هذا الساحل المقصود به هنا هو قوم (البلست أو الفلسطينيين).
(٢) ماجوج هي تحريف لكلمة ماشوش.
(٣) الساكنون في الجزائر المقصود بهم سكان الجزر الساحلية أي البلست أو الفلسطينيين.

ب) عسكرياً: انهيار عسكري مروع أدى لخروج أقرب مستعمرات مصر الآسيوية مثل منطقة (مدين) أو (مديان) من دائرة النفوذ والسلطة المصرية.

ج) تفشي الفساد والانحراف والظلم والرشوة والمحسوبية في كل مرافق الدولة.

د) اتباع السلطة الحاكمة ممثلة في الفرعون وحاشيته، لسياسة دكتاتورية استبدادية، ذات نزعة عسكرية قمعية، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ [البروج].

١. تنامي شوكة العبرانيين الأجانب في الشمال الشرقي للبلاد (جاسان) توراتياً، ووجود ثورات وقلاقل بينهم، بل وتعرض مصر في نهايات المرحلة إلى موجات من الغزو المسلح والنهب لمقابر ملوكها وكنوزها على أيديهم.

٢. وجود تيار معارض قوي داخلي لسياسات الفرعون داخل أوساط الأسرة الفرعونية ذاتها ممثلة في زوجة الفرعون والرجل من آل فرعون اللذين ذكرهما القرآن الكريم وحده، والمؤسسة الدينية الكهنوتية في مصر (سحرة فرعون).

٣. تنامي سلطة كهنة آمون بشكل واضح ممثلة في شخصية (هامان)[1] القرآنية، بحيث أصبح ذكرهم دائما يأتي مقترنا بالفرعون ذاته من حيث السلطة والنفوذ، وكذلك وجود تحالف بينهم وبين بعض الشخصيات الحاكمة العبرانية لتلاقي المصالح المشتركة.

٤. اختفاء مفاجئ لفرعون مصر وحليفه رئيس كهنة آمون من على مسرح الأحداث، وغرق الفرعون بما يعني عدم وجود جثته أو موميائه في مقبرتها.

٥. حدوث تغير فجائي في الأسرة الحاكمة بعد الأحداث، ممثلاً في النص القرآني بطلب زوجة الفرعون تبني أحد الذكور الأغراب، وكذلك التأكيد القرآني على تولي أسرة أخرى وقوم آخرين مقاليد الحكم، بما يتوازى مع القصة التوراتية القائلة بموت بكر الفرعون وولي عهده.. من هنا يمكننا افتراض حدوث خلل في الانتقال الطبيعي للسلطة، واستيلاء أحد الغرباء على العرش غصباً بعد موت فرعون الخروج.

(١) الكاهن الأعظم لبيت آمون.

٦. تغير الخارطة السياسية المحيطة بمصر، مثل اضمحلال قوة إمبراطورية الحيثيين الجبارة، تلك الأمة التي لم تستطع مصر في مجد قوتها العسكرية أيام رعمسيس الثاني أن تخضعها، وتحولها إلى شعب ضعيف عسكريا بائس التعداد، كذلك الذي تصفه التوراة عند دخول العبرانيين أرض كنعان بعد أربعين سنة فقط من أحداث الخروج، وينطبق هذا أيضاً على الآموريين، بل أيضاً على حقيقة تواجد عسكري وسكاني فلسطيني... إلخ، وهذا ما لم يحدث إلا بعد عهود رعمسيس الثاني ومرنبتاح بزمن طويل جداً.

٧. وجود حاجة إلى إحداث تغيير جذري للنهوض بالأمة المصرية من كبوتها بعد الكارثة، مما قد يطلق عليه أي حكم لاحق (عصر النهضة) بسهولة ويسر.

والآن ننتقل إلى الوثائق المصرية المتعلقة بالفترة أو الحقبة التي نفترضها، وسنعتمد هنا على حرفية النص الذي أورده الدكتور سليم حسن في موسوعة مصر القديمة، عن تاريخ تلك الفترة، من واقع الوثائق، دون أدنى تدخل منا، علما بأن الدكتور سليم حسن أو غيره من المؤرخين لم يقوموا مطلقاً بافتراض تلك الفترة كمرحلة لأحداث الخروج الإسرائيلي من مصر.

نبدأ بطرح شخصية الفرعون (رعمسيس التاسع) كفرعون للخروج، ونبدأ الرحلة من خلال كتابات الدكتور سليم حسن الذي بدأ الرواية باقتضاب وإيجاز واضح من عهد (رعمسيس السادس) وصولاً إلى الفرعون (رعمسيس التاسع)، ثم إلى نهاية تلك الحقبة التي عرض لها في موسوعته، يقول د.سليم:

[وفي عهد (رعمسيس السادس) لم نجد شيئاً من عهده يستحق الذكر إلا مقبرة كشف عنها في بلاد النوبة، وهي لنائب الملك في بلاد «واوات» التي كانت تعد في العهد الفرعوني أكبر مصدر لاستخراج الذهب، وقد اتخذ الحاكم مقر حكمه بلدة «عنيبة» الحالية، وقد دفن في مقبرته هذه، ومن نقوشها نفهم صلات مصر ببلاد النوبة، وأن الأخيرة حتى في أحرج الأوقات في تاريخ مصر كانت دائماً متصلة اتصالاً وثيقاً بالفراعنة، وتدين لهم بالطاعة والولاء.

وفي عهد هذا الفرعون ومن قبله تحدثنا النقوش التي عثر عليها أن سلطة الكاهن الأكبر «لآمون» قد أخذت تعظم، ويتفاقم خطرها كما أخذت سلطة الفرعون تضعف

وتتضاءل، وفي الحق نجد أن أسرة بعينها وهي أسرة الكاهن الأكبر (رعمسيس نخت) قد أصبحت ذات نفوذ عظيم في البلاد، فكان أفرادها فضلاً عن نفوذهم الديني يتولون الشئون المالية، فقد كان والد (رعمسيس نخت) هذا هو رئيس الضرائب في البلاد، وقد ورثها أحد أبنائه كما أصبحت وظيفة الكاهن الأكبر وراثية في الأسرة، وبذلك أصبحت في الواقع هي الحاكمة الفعلية في البلاد، ولم تترك للفرعون من السلطة إلا الاسم وحسب، ثم خلف (رعمسيس السادس) على عرش مصر شبح آخر يحمل اسم (رعمسيس السابع) لا نعرف عنه ولا عن عهده شيئاً إلا مقبرة للعجل «أبيس» بنيت في عهده عرفنا من نقوشها المراسيم التي كانت تؤدى لهذا العجل عند دفنه، ثم أعقبه (رعمسيس الثامن) ولم يذكر اسمه إلا مرة واحدة على لوحة لأحد الموظفين أرسله في بعثة خاصة من الوجه البحري إلى العرابة المدفونة مقر عبادة الإله «أوزير». وهكذا نجد أنفسنا نسير في ظلام دامس في ركب التاريخ المصري في هذه الفترة إلى أن نصل إلى عهد الفرعون (رعمسيس التاسع) الذي عثر له على سلسلة من الأوراق البردية تنسب إلى عهده، وتكاد تكون فذة في بابها من حيث المادة والموضوع، فقد كشفت لنا محتويات هذه الأوراق عما كانت عليه البلاد من فقر مدقع، أدى إلى اضطرابات وثورات قلبت الأوضاع الاجتماعية والدينية في البلاد رأساً على عقب.

وأهم هذه الأوراق وأعظمها شأناً الأوراق الخاصة بسرقة المقابر والمحاكمات الجنائية التي نتجت عن ذلك، فقد قامت في عهد (رعمسيس التاسع) موجة فقر أدت بالقوم إلى الكفر بكل شيء حتى بملوكهم الذين كانوا يعبدونهم منذ أقدم العهود، فأخذ حراس القبور بالاشتراك مع الطبقة السفلى من الأهلين وبخاصة العمال وكذلك الكهنة أنفسهم يبحثون عن موارد رزق لهم يسدون بها رمق الجوع، ولم يكن أمامهم مورد عذب فياض إلا مقابر أغنياء القوم والملوك التي كانت مستودعاً لحليهم وأثاثهم الفاخر، فأخذوا ينهبون ما فيها مما غلا ثمنه وخف حمله، وقد بدءوا بمقابر علية القوم نساء ورجالاً ثم انقضوا على مقابر الملوك على الرغم من حراستها والقيام بالمحافظة على ما فيها، فكانت تؤلف عصابات من العمال والكهنة الذين يعرفون مواطن هذه المقابر وبخاصة التي تحتوي على فاخر الأثاث، فنهبوها نهباً شاملاً كاملاً، ولا أدل على ذلك مما جاء في ورقة «ابوت» وورقة «امهرست وليوبولد الثاني»، فقد وضعت أمامنا

محتويات هذه الأوراق صورة واضحة عما كان في هذه المقابر من أثاث فاخر وحلي ثمين، والعجيب أن هؤلاء اللصوص كانوا مهرة مدربين على السطو والنهب بطريقة فنية ورثها عنهم أحفادهم الذين يسكنون في الجهة الغربية من «طيبة» الآن وقد أدت هذه السرقات إلى نشر الذعر والهلع في نفوس القائمين بالأمر من رجال الحكومة، وأخذ حاكما «طيبة» الغربية والشرقية يتخاصمان في أمر هذه السرقات، فاتهم حاكم طيبة الشرقية حاكم طيبة الغربية بالتهاون في حراسة هذه المقابر مما أدى إلى تأليف لجنة للتحقيق في شأن المقابر التي قيل إنها نهبت، وقد حدثت مشادات ومخاصمات بين هذين الحاكمين ظهر في أثنائها التحيز مما أدى إلى ضياع الحقيقة واستمرار النهب، وقد قامت في خلال ذلك لجان تحقيق للوصول إلى نتيجة، كما ضبط بعض اللصوص وأخذ رجال الإدارة والقضاء في محاكمتهم، وفي هذه المحاكمات التي أوردناها في هذا المؤلف يرى القارئ العجب العجاب، وسيتضح له من محتوياتها أن اللصوص كانوا يتألفون من فقراء القوم والكهنة أنفسهم الذين كانوا قائمين على حراسة هذه المقابر، وقد كانوا يقتسمون فيما بينهم محتويات هذه القبور التي دل ما وجد فيها على أنها كانت تحتوي على نفائس غاية في الأهمية والقيمة، ولقد كان اللصوص يتخذون من الطرق في إخفاء سرقاتهم ما نراه ونسمعه في أيامنا هذه، فكانوا يمحون أسماء أصحاب هذه القبور ويأخذون الثمين منها فقط، وما لا يدعو إلى الريبة في أمره، كما سنرى أن الحراس وفقراء القوم كانوا لا يطمعون في أخذ أنصبة كبيرة قد تفشي سر غناهم المفاجئ، وثروتهم الطارئة، ولكن المحاكمات التي كانت تعقد للوصول إلى الحقيقة قد استملت طرقاً غاية في الذكاء وغاية في الشدة للوصول إلى هؤلاء اللصوص وما ارتكبوه من جرائم، فقد كانوا يحلفون المتهم بالأيمان المغلظة عندهم كالحلف بالملك وبالإله كما كانوا يستعملون أنواع التعذيب بالجلد والنفي كما هي الحال في أيامنا، وقد كان اللصوص يعترفون أحياناً بأشياء لم يرتكبوها كما كان بعضهم يصر على عناده ولا يبوح بشيء، والغريب أننا نرى من سير هذه المحاكمات أن معظم اللصوص كانوا من حراس المقابر أنفسهم والكهنة القائمين بالمحافظة على هذه المقابر، ولما فرغوا من سرقة ما عرفوه من مقابر فخمة ذات أثاث ثمين انتقلوا إلى سرقة أوان وأثاث المعابد نفسها جهاراً، ولقد بلغ ببعضهم الجرأة أنهم كانوا يتخذون من خشب أبواب المعابد ومعادنها مادة لصنع

توابيت لأنفسهم منها أو لإذابتها وبيعها لسد رمقهم. وقد اعترف بعض اللصوص بأن السبب في ارتكابهم مثل هذه الجرائم مع ملوكهم هو الفقر والجوع وقلة ما لديهم من متاع، فقد قال بعضهم: لقد سرقت لأسد رمقي. ولقد كانت السرقات ترتكب جهاراً في رابعة النهار، ولقد ساعد على ذلك إغضاء الحراس من الكهنة، ولقد قيل إن الكاهن الأكبر نفسه في تلك الفترة كان يشترك في هذه الجرائم، وبخاصة لأنه كان يؤول إليه في النهاية أمر تنفيذ عقاب هؤلاء من الكهنة المجرمين، وقد زاد الطين بلة في تلك الفترة أن الجنود المرتزقة من اللوبيين وغيرهم قد ازداد نفوذهم في البلاد وأصبحوا يسيطرون على الموقف، فكانوا يشتركون في النهب والتخريب. وسيرى القارئ مما استنبطناه من سير المحاكمات كيف كانت تؤلف محكمة الجنايات للتحقيق مع اللصوص، وكيف كان يسير التحقيق وتنفذ الأحكام، وسنرى أن الوزير كان القاضي الأعلى لهذه المحاكم يعاضده فئة من رجال الإدارة ومعه الكاهن الأكبر، وكيف أن أحكامه كانت لا تصدر إلا بعد تصديق الفرعون عليها، وأن النظرية القائلة بأن الفرعون هو الذي كان يصدر الأحكام ويقضي فيها وحده نظرية خاطئة، وكل ما هنالك أنه كان في نهاية عرض التحقيق عليه كان هو الذي يصدق على الحكم أو يأمر بالعفو إذا شاء، وقد كان بعيداً عن التأثير في سير المحاكمات، وسيرى القارئ كذلك من سير التحقيق أن المحققين كانوا يشبهون في كثير من الأحوال وكلاء النيابة والمحققين في أسئلتهم وإظهار الحقيقة، وأنه كان هناك رجال شرطة يتجسسون على عصابات السرقة ويقبضون عليهم مما يذكرنا برجال اسكتلنديارد في انجلترا والبوليس السياسي في بلادنا، ولكن للأسف نجد أن طرق إظهار الحقيقة التي كانت تتخذ لجعل المتهم يدلي بالحقيقة، وهي الضرب والتعذيب هي التي لا تزال حتى الآن في بعض جهات العالم وفي مصر أيضاً، فما أشبه أمس باليوم، وهكذا نجد أن التحقيقات في مصر القديمة منذ أربعة آلاف سنة لا تزال كما هي.

ومن الطريف أن نرى بعض اللصوص يعترف بفرح وسرور بجريمته كأنه عائد من معركة قد انتصر فيها أو كنز عثر عليه وظفر بمحتوياته، ولكن دل الفحص والاستنباط على أن هذه الاعترافات كان يكتبها رجال الشرطة كما يشاءون، وليس على المتهم إلا أن يصدق عليها وهو لا يعرف ما اتهم به سواء أكان في صالحه أو في غير صالحه.

وقد عثر على وثائق أخرى هامة منها ما هو خاص بتقسيم الميراث ومنها ما هو خاص بالضرائب وجمعها ولكن أعجبها وثيقة خاصة بالتبني لا نظير لها في تاريخ العالم من حيث التشريع ومن كل هذه الأوراق نقرأ بين السطور عن حالة عدم الاستقرار في البلاد والفقر المدقع.

ولقد أدت هذه الحالة الميئسة في البلاد من النهب وتسلط الأجانب وبخاصة اللوبيين إلى قيام ثورة اجتماعية أدت إلى غزو البلاد بطوائف الأجانب، وقيام حروب داخلية كان لابد من إخمادها والقضاء عليها، وبخاصة أن رجال الدين قد استأثروا بالسلطة حتى أصبح الكاهن الأعظم هو والفرعون يتنازعان على زمام السلطة في البلاد حتى لنرى على الآثار أن «أمنحتب» الكاهن الأكبر قد رسم نفسه على جدران معابد الكرنك بحجم واحد مما لم يحدث مثيله في تاريخ مصر من قبل، وقد أدى الأمر بعد ذلك إلى قيام الثورة على هذا الكاهن، وطرده من وظيفته، وظهور القحط في البلاد إلى أن قيض الله لها رجلاً عصامياً مغمور الذكر هو «حريحور» مؤسس الأسرة الواحدة والعشرين، وكان من رجال الحرب في بادئ أمره كما تدل شواهد الأحوال، فأخذ يجمع السلطة الدينية والحربية والسياسية في يده، ثم بدأ يسلب الفرعون الجالس على عرش الملك وهو (رعمسيس الحادي عشر) سلطانه شيئاً فشيئاً حتى استولى على زمام الأمور في البلاد جملة، وأسس ملكاً لنفسه في «طيبة» غير أنه على ما يظهر لم يكن في مقدوره أن يقوم بأعباء الأمور وحده، فأشرك في الملك معه «سمندس» في «تانيس» التي جعلها عاصمة ملكه في الشمال.

وتدل شواهد الأحوال وما لدينا من نقوش على أنه بعد موت «حريحور» – الذي لم تعترف به القوائم الرسمية التي وصلت إلينا بأنه كان فرعوناً شرعياً لمصر – قد قسمت البلاد مملكتين: مملكة الجنوب وعاصمتها طيبة، ويحكمها رؤساء الكهنة وأخرى في «تانيس» في الدلتا ويتولى عرشها أسرة «سمندس» وبذلك عادت مصر سيرتها الأولى من التقسيم قبل عهد مينا – الوجه القبلي والوجه البحري، فقد كان رجال كهنة «آمون» الذين أخذوا يجمعون السلطة في أيديهم شيئاً فشيئاً منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة أصبحوا هم المسيطرين على شئون الدولة الدينية والاقتصادية في عهد «حريحور». وقد كان «حريحور» هذا بطل عصر النهضة التي قامت في البلاد لتحريرها من ربقة الأجانب

وبخاصة اللوبيين، وقد تم له ما أراد فأصبح الملك المطلق، وقد نصب ابنه «بيعنخي» كاهناً أكبر في «طيبة» قبل موته، كما أصبح «سمندس» الفرعون المطلق على البلاد كلها بعد موت «حريحور»، ولكن سلطانه لم يكن عظيماً على كهنة «طيبة» بل أخذوا يستأثرون بالأمر في الوجه القبلي، وإن كان هو قد أصبح الملك على البلاد كلها اسماً، وقد سارت البلاد على هذا المنوال بحكم الكهنة العظام في «طيبة» بوساطة الكاهن الأكبر في «طيبة» الذي كان يدعي أنه يمثل «آمون»، وأن «آمون» هو الحاكم الحقيقي للبلاد، وكان يحكم البلاد بوساطة الوحي، فكان تمثال الإله يقضي في كل المخاصمات الاجتماعية والدينية في البلاد، فكان بمثابة القاضي الذي يفصل في كل الأمور، ويرجع الأمر إليه في كل الأحوال. وكانت تماثيله منتشرة في كل البلاد تحت ألقاب مختلفة باسم «آمون» تفصل في المخاصمات كلها، فكان ذلك بمثابة حكومة إلهية، وكان «آمون» يعد فرعوناً يحكم بلاد الوجه القبلي، ولكن دلت الأحوال على أن حالة النهب والسلب وبخاصة مقابر الملوك كانت لا تزال شائعة منتشرة، مما جعل الأتقياء من هؤلاء الكهنة يجمعون كل هؤلاء الملوك في مكان واحد خفي عن أعين اللصوص حتى لا تنتهك حرمتهم، وقد جددوا أكفانهم، وكتبوا ما فعلوه على الأكفان، مما ساعدنا على ترتيب هؤلاء الملوك وكهنتها. وقد ظل هؤلاء الملوك في مخبئهم حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حيث كشف عنهم في خبيئة الدير البحري، وقد عثر عليهم أحد لصوص بلدة «قرنة مرعي» الذين يعدون بلا شك من نسل أولئك اللصوص الذين نهبوا المقابر في عهد الأسرة العشرين، وكان لهذا الكشف أعظم أثر في تاريخ مصر، وقد قفاه كشف آخر في تلك الجهة في خبيئة أخرى كانت تحتوي على موميات كهنة هذا العهد، ولكن هذا الكشف الأخير لا يعد شيئاً بجانب الكشف الأول الذي وضع أمامنا صحيفة ناصعة عن تاريخ ملوك الدولة الحديثة حتى الأسرة الواحدة والعشرين. أما أسرة «سمندس» فقد أخذت تتصاهر مع أسرة الكهنة في «طيبة» وأصبح الاتصال بينهم وثيقاً حتى أصبح الكهنة العظام بالمصاهرة يتولون بعد الكهانة العظمى عند موت الفرعون عرش البلاد في «تانيس»، وهكذا أصبحت البلاد على الرغم من تقسيمها ظاهراً متحدة بالمصاهرة باطناً، فكان ابن ملك «تانيس» أحياناً يسير في موكب حافل بعد موت الكاهن الأكبر ليتولى عرش الكهانة، فإذا مات والده الملك ولم يعقبه أحد تولى هو عرش الملك وولى

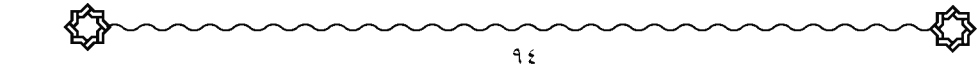

ابنه كاهناً أكبر في «طيبة»، وهكذا سارت الأمور في البلاد إلى أن أخذ نفوذ اللوبيين الذين استوطنوا البلاد بوصفهم جنوداً مرتزقة وحكاماً للأقاليم يعظم شيئاً فشيئاً حتى قامت فتنة لم نتبين حقيقتها على وجه التأكيد انتهت بزوال ملك الأسرة الواحدة والعشرين، وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين الذين كانوا من أصل لوبي، وقد سهل عليهم الوصول إلى غرضهم هذا ما كان بين اللوبيين وملوك الأسرة الواحدة والعشرين من مصاهرة]. انتهى[1].

وقد قال نفس المؤرخ عن الأوضاع الاقتصادية السائدة، مما عكسته التحقيقات الموسعة التي جرت عن سرقة المقابر الفرعونية والتي تكاد تكون هي السمة الأكثر تمييزاً لعهد ذلك الفرعون ما يلي:

[«وتحتوي كتابات يوميات السنة الثالثة عشرة من حكم هذا الفرعون على عدة إشارات تدل على خيبة الهيئة الحاكمة، وعدم قدرتها على إعطاء عمال الجباية جراياتهم، وسواء أكان ذلك عادياً في عهد الرعامسة أم يرجع إلى أسباب خاصة من النوع الذي نسعى في تتبعه فإن هذا لا يمكن الجزم به. ونذكر أن «إري نفر» زوج «بنحسي» التي اعترفت أنها حصلت على بعض الفضة ببيع غلة في «سنة الضباع» عندما كان الناس جياعاً، وهذه إشارة إلى قحط حدث في البلاد ليس سببه قاصراً فقط على نقصان النيل»]. انتهى[2].

ومن الهام جداً أن نذكر هنا، أن سمة عصر الفرعون (رعمسيس التاسع) قد تمثلت أساساً في عمليات النهب الواسعة التي حدثت للمعابد والقبور الفرعونية، ذات الدلالة الدينية عظيمة الخطر في الفكر المصري القديم، مما يوحي بحدوث حالة من فقر مدقع، واضطرابات دينية شاذة، ويلاحظ أن هذا الفرعون لم يترك خلفه إلا بعض الآثار التافهة المهمشة التي لا تستطيع أن تبني لها تاريخاً ذا معالم واضحة، اللهم إلا مقبرة سنورد وصفها لاحقاً، تم تشطيبها على عجل شديد مما يوحي بحدوث موت مفاجئ لهذا الفرعون، والذي لم يقدر له أن يدفن في بطنها مطلقاً بعد موته.

---

(١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٨، الصفحات من ك – ص بالمقدمة.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠١.

ويمكن التعرف بشكل غير مباشر على ملامح تاريخ هذا الفرعون، عن طريق التعرف على ما وجد من آثار لوزيره الأول والكاهن الأول لمعبد آمون (آمون – حتب)، والذي أسماه القرآن الكريم (هامان)، بإضافة أداة التعريف العبرية (ها) إلى اسم (آمون) ليكون اللفظ (ها آمون) أو (هآمون)[1]، هذا الكاهن الخبيث الذي حدثت في عهده أحداث هائلة، يتحدث عنها د. سليم حسن قائلاً:

«إن تخريب مقر ملك ومحو عبادة واختفاء كل ما يذكر باسم إله ممقوت، كل هذه الأشياء تكون عادة من أعمال حرب أهلية. ويلاحظ أن المؤرخين لمصر القديمة الآن عندما يصلون إلى عهد الأسرة العشرين والأسرة الواحدة والعشرين لا يتحدثون إلا عن تتابع الملوك ومدة حكم كل واحد منهم، حتى كأنه لم يكن قد حدث أي شيء في المدة التي بين (رعمسيس الثالث) و(شيشنق الأول). ولكن على الأقل قد حدثت حرب ضروس روعت المعاصرين لها كما روعت الخلف. ونحن مدينون لجوسفس مؤلف كتاب «كنترا ابيون» بقصة ذكرت فيها حوادثها المسببة. وكل عناصر هذه القصة مأخوذة من تاريخ مصر الذي وضعه «مانيتون». وقد بدأ «جوسفس» (يوسف) بمقدمة طويلة (من ص٢٧٧ – ٢٣٦) وفيها لخص ما ذكره «مانيتون» مع توجيه انتقادات له. ولكنه من صفحة ٢٣٧ – ٢٥٢ نجده يقتبس «مانيتون» حرفياً إلا في الفقرة ٢٥٠ فإنه استقاها من مصدر آخر، ثم بدأ ينتقده ثانية حتى صفحة ٢٦٠، ثم من صفحة ٢٦١ إلى ٢٦٧ نجده لخص الحقائق التي عرفنا بها من قبل في الاقتباس الحرفي. وفي الصحائف العشرة الأخيرة نجده يجتهد في إظهار سخافات تدل على بعد المؤرخ المصري عن الصواب. ولكن من يقرأ هذه القطعة يتفق معنا على ما أظن، على أن هذه القطعة المقتبسة حرفياً من «مانيتون» واضحة ومتماسكة، ويمكن عدها أنها تحتوي على آراء مصرية تدعو إلى الثقة، إذ أن انتقادات «جوسفس» على العكس غامضة، وبسببها قد ظهر أن مجموعها يدعو إلى الشك عند علماء الآثار وهم الذين- اقتفاء لمسبرو – يرون فيها مجرد أسطورة حيث نلحظ فيها القليل من الحقائق التاريخية وكثيراً من الخرافة. ويمكن أن نتخلص من صعوبة كبيرة في هذا الموضوع إذا لاحظنا أن هناك ثلاث شخصيات بدلاً من اثنتين،كما هو المعتقد عادة، يدعى كل منهم باسم «امنوفيس» قد اختلطت أسماؤهم في

(١) هآمون = ها آمون، كما كان يلفظ العبرانيون اسم كاهن آمون الأكبر.

هذا التاريخ. فالفرعون «امنوفيس» (أي امنحتب الثالث) يعلم من معاصره «امنوفيس» بن «حبو» أنه في المستقبل ستوضع مصر على يد النجسين وحلفائهم في النار وفي الدم. وهذا الخبر ليس فيه ما يدهش للأثري المصري الحديث المدقق تدقيقاً عظيماً، وذلك لأنه في عهد «امنوفيس الثالث» (امنحتب الثالث) كان يعيش رجل عظيم يدعى «امنوفيس» (امنحتب) بن «حابو» وكان ذا شهرة عظيمة لما أوتيه من الحكمة والعلم، وقد بلغ من العمر أرذله. وقد بنى له الفرعون الذي كان يحبه حبًا جماً معبداً خلف المعبد المخصص لعبادته. وقد كشف عنه اثنان من الأثريين الفرنسيين حديثاً (راجع مصر القديمة ج٥ ص٤٦٣ - ٤٩٠).

وقد كان الفراعنة مغرمين بمعرفة المستقبل، وكان الملك «سنفرو» أول ملوك الأسرة الرابعة قد أعلن على لسان حكيم هليوبوليتي وقوع غزوة آسيوية لن تقع فعلاً إلا بعد تاريخه بمدة خمسة قرون (أي بعد الأسرة السادسة). وعلى الرغم من صمت الوثائق المصرية يمكننا القول بأن «امنوفيس الثالث» قد علم من سميه الحكيم بمصيبة من نفس هذا النوع لدرجة أن فكرة هذه المصائب المقبلة اضطرت هذا الرجل المقدس أن يتخلى عن الأيام القليلة التي بقيت له في الحياة. ولكن يبدأ ارتباك هذه القصة عندما نعلم من الفقرة التي اقتبست حرفياً من «مانيتون» أن الفرعون «أمنوفيس» يجب أن يقوم بحرب على الأنجاس، وأن ابن «امنوفيس» هذا كان يدعى «سيتي» وكذلك يدعى «رعمسيس». وقد فسر «جوسفس» على ما يظهر أن الملك الذي سمع النبوءة وسميه الذي رآها تتحقق هما شخص واحد، ولكن لا شيء لدينا يبرهن على أن «مانيتون» لم يعتقد توحيدهما.

والواقع أن الحقائق التاريخية التي اقتبسها «جوسفس» من «مانيتون» تجبرنا على أن نميزهما أحدهما عن الآخر، فالفترة التي تفصل بداية الأسرة الثامنة عشرة عن نهاية عهد «أمنحتب الثالث» (أمنوفيس) قد قدرت بثلاث وستين ومائة سنة وخمسة أشهر، على حين أن المدة التي كانت بين طرد الهكسوس وحرب «أمنوفيس» مع الأنجاس تقدر بثماني عشرة وخمسمائة سنة. وهذا الرقم - على أية حال - عال جداً، وقد وصل إليه «جوسفس» بإضافة المدة التي تبدأ من أول الأسرة الثامنة عشرة حتى عهد الأخوين «سيتي» و«همايوس»، أي ٣٩٣ سنة إلى التسع والخمسين سنة التي حكمها «سيتوس»

وإلى الست والستين سنة التي حكمها «رميسيس» (رعمسيس الثاني) وقد نسي أن «رميسيس» هذا قد حسبت مدة حكمه فعلاً في الثلاث والتسعين والثلاثمائة سنة السالفة الذكر. وعلى ذلك يجب أن نطرح الست والستين سنة التي حكمها من المجموع الكلي. فيكون الباقي هو ٤٥٢ سنة.

ونحن نعلم أن الأسرة الثامنة عشرة قد ابتدأت حوالي ١٥٥٥ ق.م. فحرب الأنجاس يمكن وضعها إذن في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد (حوالي ١١٠٠ ق.م) وهذا يتفق مع آخر عهد الأسرة العشرين.

وملوك هذه الأسرة- إذا استثنينا أولهم – سموا كلهم باسم «رعمسيس» وآخر الرعامسة قد اتخذ اسم تتويجه، أو بعبارة أخرى لقبه الرسمي «من ماعت رع» وهو لقب «سيت الأول» أيضاً. وهذا ينطبق تماماً على ابن «أموفيس سيتوس» (سيتي) الذي كان يسمى كذلك «رعمسيس» أي باسم جده «رميسيس» (رعمسيس) الذي لم يمكث إلا خمس سنين في بداية الحرب.

ولكن من «أمنوفيس» هذا الذي لا تذكره قوائم أسماء الملوك، والذي يعده «جوسفس» نفسه شخصاً خرافياً؟ والواقع أنه في عهد «رعمسيس التاسع» ظهر شخص ذو قوة عظيمة جداً يحمل نفس الاسم الذي يحمله ابن «حبو» ومليكه. وأعني بذلك الكاهن الأكبر لآمون المسمى «أمنحتب» (أمنوفيس) وهو الذي ورث هذه الوظيفة من أخيه «نسآمون» الذي أخذها بدوره عن والدهما «رعمسيس نخت». وهذا الكاهن الدساس الماهر قد انتزع من مليكه الضعيف ألقاب شرف وسلطان تفوق حد المألوف وضعته فوق الفرعون. ويتساءل الإنسان عما إذا كان هذا الكاهن قد حاول الاستيلاء على العرش نفسه وهو ما فعله بعد فترة قصيرة خلفه في رياسة كهانة «آمون» «حريحور».

والواقع أنه ليس لدينا برهان يؤكد هذه الحقيقة. ولكن لدينا متون سنذكرها فيما بعد تظهر أن مجال حياة الكاهن الأكبر «أمنوفيس» كان مضطرباً عند نهايته. وقد جاء ذكر حرب خاصة بالكاهن الأعظم «لآمون»، وإذا كان كل من «جوسفس» و«مانيتون» – أو «جوسفس» فقط – قد أخطأ في أنه عد «أمنوفيس» بمثابة الملك الحقيقي، ووالد آخر الرعامسة – فإن هذا الخطأ يجب الاعتراف به، غير أنه خطأ يمكن التسامح فيه،

إذ أنه لا يكاد يقلل من احتمال صحة القصة. فرعمسيس العاشر لم يكن له في الحكومة أهمية تذكر بالنسبة لوزيره الطموح.

وقد قدم لنا مؤلفنا «جوسف» تفاصيل دقيقة عن مشعلي هذه الحرب، فقال عنهم إنهم مصريون قد أصيبوا بالبرص وبعاهات منوعة لم تمنعهم قط عن العمل في المناجم، ومن وجود حلفاء عند قيامهم بالثورة، ومن نشر الرعب في البلاد. وقد كانت «أواريس» (بلدة «تيفون» أي الإله ست) مقرهم. وقد سنوا قوانين تتعارض تماماً مع العادات المصرية، ولم يعبدوا الآلهة، وذبحوا الحيوانات المقدسة وأكلوها. وهذه المعلومات ليست واقعية بدون شك، ولكنها مع ذلك تقابل بالضبط الفكرة التي نكونها عن هذه الحروب عند أتباع «آمون» ولفظة «الأنجاس» التي فهمها كتاب العصر المتأخر على حسب معناها الحرفي وحسب، وهي في الواقع ترجمة كلمة «إدت» ومعناها الحرفي «الطاعون» ويقصد بها «الهكسوس». ولكن لماذا كان القوم يكرهون الهكسوس؟ وسبب هذا الكره – على الأقل – أنهم أجانب يحتقرون آلهة المصريين العظام عدا الإله «ست» (اتخذوه إلهاً لهم عندما دخلوا البلاد غازين ووحدوه مع أحد آلهتهم «بعل»).

والواقع أن تأسيس الأسرة التاسعة عشرة وإقامة مقر ملك في «أواريس» كان – على الأقل – علامة على انتقام الإله «ست» وسيادة سكانها الذين كانوا – من حيث الجنس – نصف ساميين. ولا نزاع في أن «سيتي» و«رعمسيس» ومن تسمى باسميهما من الملوك ليسوا – في الجملة – إلا هكسوساً أكثر تمصراً من الملك «خيان» و«أبوفيس» ومن تسمى باسميهما.

ولما كانت مصر ليس لديها ما تشكوه منهم فقد عمل القوم على أن ينسوا أنهم قد استقروا – عن طيب خاطر – في حقول «تانيس» أكثر من «منف» أو «طيبة»، وأنهم قد ضربوا المثل في عبادة «ست» وزوجه «عنتا» وغيرهما من الآلهة الآخرين الذين هم من أصل آسيوي. وقد كان كره المخلصين «لآمون» موجهاً إلى هذا الإله، وإلى السكان أيضاً.

وعلى أية حال فإن لدينا بعض اللوم الذي نوجهه إليهم، فقد كان سكان هذه المدينة لا يزالون يمارسون العادة الوحشية، وهي التضحية بالآدمي ووضعه في ودائع

الأساس، وهذه عادة لم تكن متبعة في سائر البلاد المصرية. وعلى العكس من ذلك فقد كانوا لا يهتمون بالحيوانات المقدسة، ومن ثم نرى أن الآلهة التي كانت ترسم على المسلات والعمد واللوحات والنقوش البارزة كانت تمثل كلها تقريباً في صورة آدمية، يضاف إلى ذلك أن اللغة التي تسود الجهات من البحر الأبيض حتى الشلال الأول كانت واحدة، ولكن اللهجة والاصطلاحات والألفاظ كانت مختلفة لدرجة أن رجل «الدلتا» إذا أتى إلى «أسوان» كان لا يفهم شيئاً تقريباً مما يسمعه، ولا يمكنه أن يجعل نفسه مفهوماً في آن واحد كما هي الحال الآن.

ويقول «مانيتون» إن أهالي «أواريس» هم وحدهم المسئولون عن هذه الحرب، فقد كان رئيسهم كاهناً من «هليوبوليس» يدعى «أوسارسف» (وسر – سا – ف) [معنى الاسم «أوزير» حاميه]. وقد قام بواسطة جمهور من العمال بإصلاح جدران المدينة، وأمر بالاستعداد لمحاربة الملك «أمنوفيس» وقد أرسل مبعوثاً للرعاة (الهكسوس) يطلب التحالف معهم، وقد وعدهم بأن يقودهم أولاً إلى «أواريس» وهي موطن أجدادهم، وأن يمدهم بدون حساب بكل ما يحتاجون إليه، ثم يحارب في جانبهم عندما تحين الفرصة وتخضع لهم البلاد بسهولة. وقد أسرع الرعاة والفرح يفيض منهم في السير إلى الحرب عن بكرة أبيهم، وقد بلغوا حوالي مائتي ألف رجل تقريباً، ووصلوا إلى «أواريس». ويلاحظ أن سكان الشمال الشرقي للدلتا كان لهم علاقات في الواقع تربطهم بالكنعانيين والفينقيين أكثر من التي كانت بينهم وبين «طيبة»، وقد أخذوا يتنافرون مع هؤلاء، وعلى ذلك كان من الطبيعي أن يتفاهموا مع أعداء مصر. وهذه المحالفة كانت قد عقدت وحدها من جديد عندما أصبحت «أواريس» عرضة لحرب الطيبيين.

وبعد أن تدبر الملك «أمنوفيس» الأمر مع رؤساء مصر وضع الحيوانات المقدسة والتماثيل العظمية الاحترام في مأمن، وأمر بترحيل الأمير الشاب «سيتوس» وهو الذي كان يسمى كذلك «رعمسيس» (أي رعمسيس الحادي عشر) إلى بلاد «كوش». وبعد أن جمع جيشاً قوامه ٣٠٠٠٠٠ نسمة مدربين أحسن تدريب قام لمقابلة العدو، غير أنه لم يجسر أن يبدأ القتال، فعاد بجيشه إلى «منف» حيث أخذ العجل «أبيس» والحيوانات الأخرى المقدسة التي أمر بإحضارها وبعد ذلك قام في الحال مع كل جيشه والسكان المصريين متجهاً نحو بلاد «كوش» متقهقراً، فيا له من تقهقر! والتفسير الذي قدمه

«مانيتون» لهذا، هو أن «أمنوفيس» قد رأى بأنه غير مجد في معارضة ما قرره الآلهة، ويظهر أنه قد عمل ذلك ليحفظ عزة الطيبيين وكرامتهم. وإذا كان لدينا تقرير أو قصة عن هذه الحوادث بقلم أحد الأنجاس كما يسمون، فإننا كنا نعلم أنه من المحتمل إصابة الجيش الطيبي بهزيمة نكراء كانت ذكراها مؤلمة له، حتى إنهم لم يريدوا أن يتحدثوا عنها قط. ومهما يكن من أمر فإن ملك «كوش» قد استقبل هذه الجموع من اللاجئين، وأحسن ضيافتهم بمحصولات البلاد مدة الثلاث عشرة سنة التي حكم فيها على «أمنوفيس» بالنفي. وقد قام جيش نوبي لحراسة الحدود المصرية لحماية «أمنوفيس» وأتباعه. وقد انتشر الأنجاس المتحالفون مع «السولوميت» (الآسويين) في كل مصر دون أن يجدوا أية مقاومة. وقد عاملوا السكان بطريقة دنسة قاسية. حتى أن عهد الرعامسة كان يظهر بجانب ذلك العهد عصراً ذهبياً في نظر أولئك الذين قاسوا من ظلمهم الأمرين، إذ أنهم لم يحرقوا القرى والمدن وحسب، ولم يكتفوا بسلب المعابد وتحطيم تماثيل الآلهة، بل ما فتئوا يستعملون المحاريب مطابخ لشتى الحيوانات المقدسة التي كانت تعبد، وأجبروا الكهنة، وخدام الآلهة على تضحيتها وذبحها، ثم سلخها وإلقائها على قارعة الطريق. وكذلك نعلم أن الهكسوس قد أحرقوا المدن ومحوا المعابد وذبحوا، أو ساقوا الأهلين عبيداً، وقد جدد الأنجاس هذا العسف، ولكنهم - فوق ذلك - اعتدوا على الحيوانات المقدسة كما فعل «قمبيز» فيما بعد، عالمين أن ذلك يعد أعظم شيء يجرح كرامة المصريين.

وعندا انتهى أجل الثلاث عشرة سنة عاد «أمنوفيس» من بلاد «كوش» على رأس جيش جرار. وكان الأمير «رميسيس» الذي بلغ وقتئذ الثامنة عشرة من عمره يقود كذلك جيشاً. وقد هاجم الجيشان معاً الرعاة والأنجاس وهزموهم. وبعد أن قتلوا عدداً عظيماً طاردوهم حتى حدود سوريا.

وبقي علينا بعد ذلك ذكر الوثائق الأثرية والقصة التي رواها «مانيتون» والتفسيرات التي أدلى بها «جوسفس» أن نمتحن الوثائق المختلفة التي وصلت إلينا من هذا العصر الذي وقع فيه حرب الأنجاس. والشخص المسئول عن هذه الحرب فيما يخص بلدة «طيبة» هو الكاهن الأكبر «لآمون» (أمنحتب). وقد تركناه في السنة العاشرة من عهد «رعمسيس التاسع». وقد بلغ من الغنى والجاه منتهاهما، فكان يد

الفرعون لأنه كان رئيس الخزانة. وسنرى من الآن الهجمات المروعة التي كانت ستقع في «طيبة»، ففي السنة الرابعة عشرة من حكم «رعمسيس التاسع» بدأ الإعلان عن السلب الذي كان يحدث في مقابر جبانة «طيبة» وبخاصة مقبرة الملكة «إزيس» زوجة الفرعون «رعمسيس الثالث». وقد خابت هذه المحاولة، ولكن في السنة السادسة عشرة قامت عصابة اللصوص بمحاولتها من جديد، وقد لوحظ على حين غفلة أن قبراً ملكياً كان يثوى فيه الملك «سبكساف» أحد ملوك الأسرة الرابعة عشرة، وكذلك قبر الملكة «نبخعس» قد نهب. وقد حاول نقب قبرين آخرين ولكن خاب المسعى. ومن جهة أخرى نجد أن قبري مغنيتين لبيت العبادة، وعدد عظيم من مقابر الأفراد قد نهب بوحشية. فألقيت المومياوات خارج التوابيت، وانتزع ما عليها وما فيها من ذهب وفضة وحلي، وقد قبض على اللصوص واعترفوا اعترافات تامة بالجريمة، وقد كان ذلك عملاً خطيراً، غير أن الشائعات انتشرت عن سرقات أخرى أعظم أهمية قد حدثت، وقد اتهم أمير «طيبة» الشرقية صراحة أمير الجبانة بأنه يحمي اللصوص، وقد أحدث ذلك صخباً كبيراً. وقد ألفت لجنة للتحقيق كان فيها الوزير «خعمواست» ورئيس كهنة «آمون» وسمعت أقوال المتهمين والشهود. وقد أجاب أحد هؤلاء بقوله: «إن كل الملوك والزوجات والأطفال الملكيين الذين يثوون في أماكنهم الكاملة لم يسموا بعد، وأنهم محروسون، وأنهم محميون للأبدية، وأن قرارات الفرعون الحاسمة – وهو ابنهم – هي التي تحميهم، والتفتيش عليهم بدقة!» وكان هذا رأي اللجنة الذي جاء بمثابة إعلان رسمي. وعلى الرغم من حسن الظن الرسمي فقد تطورت الحال إلى فوضى علنية، إذ في السنة التالية لذلك بدأت السرقات من جديد. وقد اتهم فيها أكثر من مائة شخص كثير منهم من أتباع الكاهن الأكبر «لآمون». ولا نعلم إلا قليلاً جداً عن السنتين الأخيرتين من حكم «رعمسيس التاسع» وعن السنين الثلاث التي حكمها «رعمسيس العاشر» وعن بداية حكم الفرعون «رعمسيس الحادي عشر». والفرعون الأخير الذي اتخذ اسم تتويجه لقب «سيتي الأول» كان وزيراه الرئيسيان الكاهن الأكبر «لأمنوفيس»، ونائب «كوش» «بينحسي» حتى السنة السابعة عشرة على الأقل، وكان يقوم بوظائف هامة في الإدارة المصرية، فقد كان رئيس الخزانة الأعظم، والكاتب الملكي للجيش، والمشرف على مخزن الغلال المزدوج، وقائد الرماة. ويوجد في متحف تورين خطاب أرسله إليه

الفرعون في السنة السابعة عشرة، ونغمة هذا الخطاب ودية، ولكنه في ذاته لا يقدم لنا معلومات ذات بال، فقد جاء فيه أنه كان ينبغي لبينحسي أن يلاحظ موظفاً قد تسلم تعليمات لتنفيذها من الفرعون في «طيبة»، وقد أظهر نفسه قبل ذلك بزمن يسير بأنه جاء لإعادة النظام في المقاطعة السابعة عشرة التي سقطت عاصمتها «سنيبوليت» (القيس) في يد أعداء قد تجمعوا في الجبلين، وقد كانت فيما مضى مدينة للهكسوس. وبقيت بسبب إلهها «سبك» ذات علاقة ودية بالإله «ست».

وفي السنة التاسعة عشرة من حكم هذا الفرعون وقعت حادثة لم يعرفها متن معاصر، ولكنها على وجه التأكيد حادثة ذات شأن عظيم، وذلك لأن هذه السنة تعد بداية عهد جديد يسمى «تجديد ولادات» وعلى أية حال فإن السنة التاسعة عشرة من حكم «رعمسيس الحادي عشر» يمكن تسميتها في وثائق رسمية بالسنة الأولى من عهد تجديد الولادات. ولدينا وثائق أخرى مؤرخة بالسنين: الثانية، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة من عهد تجديد الولادات أيضاً.

وقد ظهر في هيئة العمال الإداريين العظام أسماء جديدة، فقد حل محل الوزير «خعمواست» آخر يدعى «نبماعت رع نخت». وحل «حريحور» محل كل من «بينحسي» و«أمنحتب». وبذلك جمع بين ظائف نائب «كوش» والكاهن الأكبر «لآمون» في آن واحد. وقد ظهر اسم «تانيس» للمرة الأولى في المتون المصرية حيث نعلم فضلاً عن ذلك أن وزير الشمال والملحق السياسي لآسيا كان يسكن في هذه المدينة، ويدعى «نسبانيبدد» وهو «سمندس» الذي ذكره المؤرخون الإغريق.

ونحن نعلم أن كلا من «حريحور» و«سمندس» قد صار ملكاً في وقت واحد، وعلى التوالي، بعد ذلك بقي «رعمسيس الحادي عشر» يحكم اسماً بضع سنوات، إذ لدينا لوحة عثر عليها في «العرابة» ذكر فيها السنة السابعة والعشرون من عهد «رعمسيس الحادي عشر» (راجع Gauthier L. R. III 233.) ونعلم أن بداية الأسرة التاسعة عشرة وهو عصر نهضة جاء عقب حكم أسرة ثانية أنهكها الفقر. وقد افتتح بتوليه أسرة قد وعدت بخلف ثري، وفي الوقت نفسه تعد بداية عصر تاريخي لإصلاح فرعوني داخلي وخارجي، وفي هذه المرة نجد أن أسرة الرعامسة كان لها ممثلون عديدون دائماً (راجع عن أولاد الرعامسة A. S. XVIII p. 245) وعن نواب «كوش» وهيئة العمال

الإداريين في «كوش» (راجع Rec. Trav. XXXIX p.179 – 237)، ولكن كانت قد اقتربت اللحظة التي سيقصون فيها عن السلطة إلى الأبد، والآن نتساءل هل هذا التغيير في هيئة العمال قد جلب معه في مصر إعادة قوة الفرعون؟.

والواقع أن تلك القوة لم تظهر خارج البلاد، وذلك لأن «ونآمون» مبعوث «حريحور» و«سمندس» قد عوملا عند الملك «زكر بعل» ملك إمارة «جبيل» وهي صديقة مصر القديمة بدون احترام كبير، وقد عومل «ونآمون» معاملة أسوأ من أهالي صيدا والسخاليين وأهالي قبرص. وعلى أية حال فإن الإصلاح في الداخل على الأقل كان قد أعيد فعلاً. ويلاحظ أن ورقة «ماير A»، وما جاء على ظهر ورقة «أبوت» رقم ٥، وورقتي «المتحف البريطاني» رقمي ١٠٠٥٢، ١٠٤٠٣، وورقة «امبراس» الموجودة بمتحف «فينا» وهي التي يرجع تاريخها كلها إلى عهد النهضة لها علاقة بشئون السرقات والنهب مثل ورقة «ابوت» وورقة «امهرست ليوبولد الثاني» التي تعد أقدم من الأوراق السابقة بنحو ربع قرن، ويمكن أن نذهب إلى أنه في عهد «رعمسيس التاسع» قد حميت بعض اللصوص، ولكن لم يكن هناك مجال للمجاملة، فقد كان المجرمون يحلفون اليمين على أن يقولوا الصدق، وإذا كذبوا أو أخفوا شيئاً ضربوا بالمقرعة عدة مرات إذا اقتضى الأمر إلى أن يعترفوا، وكان يحدث أن تثبت براءة أحدهم بعد الضرب بالعصا الذي ناله، والأمور التي كان يلام عليها هؤلاء التعساء لم تكن معينة بتواريخ في العادة، ولكنا أحياناً نجد أنها اتهامات قديمة يرجع تاريخها إلى عدة سنين، وعلى ذلك كان هذا العهد عهد فوضى وشقاء، لم يحترم فيه الناس المقابر ولا المعابد ولا حتى أملاك الأفراد، ولم يكن في مقدور رجال الشرطة أن يمنعوا ارتكاب الجرائم، وعندما عاد النظام إلى نصابه قبض على الأشقياء بالجملة سواء أكانوا مجرمين حقيقة أو مشتبهاً في أمرهم بأنهم اشتركوا في جرائم، ونجد في التحقيقات التي أجريت أن بعض الأسئلة والإجابة عليها تلقي ضوءاً كافياً على حالة العصر الذي كانت تجتازه البلاد.

فقد أحضرت المواطنة «إري نفر» زوج الأجنبي «بينحسي» بن «ساتي» ووجه إليها اليمين بالملك أن تقول الحق وإلا عوقبت بالنفي إلى «كوش» وقيل لها: ما لديك لتقوليه في الفضة التي يملكها «بينحسي» زوجك؟ فقالت: إني لم أرها. فقال لها الوزير: بأية طريقة حصلت على الخدم الذين كانوا معه؟ فقالت: إني لم أر الفضة التي دفعها لهم،

لقد كان في سفره عندما كان معهم، فقال لها القضاة من أين أتت الفضة التي صاغها «بينحسي» «لسبك أم ساف»؟ فقالت: لقد دفعت ثمناً للشعير في «سنة الضباع» عندما كان الناس جياعاً (راجع ورقة المتحف البريطاني رقم ١٠٠٥٢ ص١١ س٤ – ٨) وسنة الضباع يمكن أن تكون سنة مات فيها كثير من الناس ولم يتمكن الناس فيها من دفن موتاهم، وقد أتت الضباع في خلالها حتى المدن والقرى. ولو فرضنا أن هذه استعارة تشبيهية فإن السنة التي استحقت هذا الاسم المستعار ينبغي أن تكون سنة قاسية.

والفقرة التي اقتبسناها قد استعملت في وصف «بينحسي» جاء فيها لفظ يظهر أنه لم يفسر تفسيراً مرضياً بعد. وقد ترجم بلفظة أجنبي، وتدل شواهد الأحوال على أن هؤلاء الأفراد قد ذكروا كثيراً في الوثائق المؤرخة بعصر النهضة هذا، وفي معظم الأحيان نجد أنهم قد سئلوا على انفراد، وأحياناً كانوا يعملون جماعة جماعة كما نشاهد ذلك في فقرة من ورقة «ماير A» فقد حقق مع المسمى «عحا نفر» وبعد أن حلف اليمين بأن يقول الصدق شهد بالألفاظ التالية:

لقد ذهب أجانب واستولوا على المعبد على حين كنت مشتغلاً ببعض حمير يملكها والدي، ولكن «باحاتي» وهو أجنبي قبض علي وساقني قهرا إلى «ابيب» (راجعه ورقة «ماير A» ص٦ س٦، ٧). ويتساءل الإنسان عن هؤلاء الناس الذين يتكلمون لغة أجنبية ومع ذلك يحملون كلهم أسماء مصرية، وقد اشتركوا في نهب القبور والمعابد، أليس من الجائز أن يكونوا من أهالي «أواريس» وحلفائهم الذين انتشروا في كل الإقليم «الطيبي» بعد التقهقر المخزي الذي قام به جنود «أمنوفيس»؟ وهذا الحادث الأخير قد ترك أثراً عميقاً، ونظن أننا نجده في إشارتين في متون التحقيق، فقد سئلت امرأة من «طيبة» تدعى «موت مويا» بأن تحلف أن تقول الصدق، وقالت: وعندما وقعت حرب الكاهن الأكبر استولى هؤلاء الرجال على أشياء لوالدي، وقد قال والدي: إني لم أترك هؤلاء الرجال يدخلون البيت.. (ونهاية الشهادة فقدت) (راجع الورقة رقم ١٠٠٥٢).

والعامل الذي عرف جيدا كيف يضع حميره في مأمن عندما رأى اللصوص يهاجمون المعبد قد ذكر في شهادته اسم الكاهن الأكبر ليؤرخ المنظر، فقد قال: إن هذا

قد حدث في مدة ستة أشهر بعد التعدي الذي عمله «أمنوفيس» الذي كان كاهناً أكبر، وعندئذ كان قد كسر خزانة النفائس وأشعلت فيها النار. (راجع ورقة «ماير A» ص٦ س٨، ٩)، وعلى ذلك تكون قد وقعت حادثة معروفة لكل العالم في مجال حياة الكاهن الأكبر «لآمون»، وقد استعملت مدة طويلة نقطة ارتكاز لتاريخ الحقائق الخاصة، وقد سماها أحد الشهود حرب «خروى» وسماها الآخر «قها»، والكلمة هنا تعني (يتعدى بالمعنى الأدبي والقانوني) في كتاب الموتى الفصل ١٢٥ الذي فيه يعلن المتوفى براءته من الخطايا. وتعني هذه الكلمة «ينهب» (قبرا). وفي ورقة «ابوت» تعني «يخرق الحدود» أي (يتعدى عليها)، وقد فهم ناشر ورقة «ماير A» وهو الأستاذ «بيت» ومن بعده تعبير الجملة الخاصة بأمنحتب في معناها بالبناء للمجهول وترجموها كما يأتي:

التعدي أو القمع الذي لحق بأمنحتب، وعلى ذلك يظن البعض أن «أمنحتب» الكاهن الأكبر قد أوقف عن أعماله تسعة أشهر على أقل تقدير، غير أن هذه الترجمة وما تبعها من تعليق عليها معرضة لنقد كبير. وقد ترجمت «عمل المتعدي الذي ارتكبه أمنوفيس»، ولكن هل تعدى الكاهن الأكبر واجبات عمله مثلا بمحاولته فرض نفسه ملكاً، أو المقصود مجرد القول أنه تعدى إلى الجهة الأخرى من الحدود؟ وهاتان الترجمتان يمكن قبولهما والمدافعة عن صحتهما بالنسبة لما لدينا من وثائق تجيز الواحدة كما تجيز الأخرى. فقد حاول فعلاً أن يكون ملكاً، كما حاول وأفلح في تعدي الحدود بعد نفيه هو والملك.

الخلاصة: لقد حاولنا فيما سبق تحليل قصة حرب الأنجاس أو الفكرة التي نقلها «يوسفس» على حسب ما جاء في «مانيتون»، وقد بحثنا عن إشارات إلى هذه الحوادث في المتون المعاصرة وأثرها في مدينة «أواريس» القديمة التي اتخذها «رعمسيس» عاصمة له، وسنحاول هنا الآن باستعمال هذه المصادر الثلاثة تأليف قصة متصلة لهذه الحرب التي لم يشر إليها أي تاريخ مصري قديم، على الرغم من أن أهميتها يمكن أن تقرن مثلاً بالحروب الدينية التي خضبت أرض فرنسا بالدماء في القرن السادس عشر.

لقد أتى «رعمسيس الثاني» بمعجزة عندما نقل مقر حكمه من «طيبة» إلى «بر رعمسيس»، وجمع في مقر حكمه آلهة الشمال وآلهة الجنوب والآلهة الآسيويين وآلهة

مصر، وبخاصة العدوين القديمين «ست» و«آمون»، دون أن يكون هناك أي احتجاج. وقد كان كهنة «آمون» وكهنة «ست» يتبادلون الود والتحيات، والطيبيون الذين جذبهم مقر الملك لم ينفكوا عن التحدث عن جمال مبانيها وبهاء مياهها ونضارة حدائقها وفرح أهلها، وقد كان لرعمسيس الفضل في خلق هذا التناسق وتلك الميزات التي اختصت بها هذه المدينة، وبعد موته بدأت المتاعب وظهرت المصاعب، إذ لم تنقض بضع سنين حتى أصبح كل شيء في مصر على أسوأ حال، وذلك عندما هب «ستنخت» ليؤسس أسرة جديدة لم تكن في الحقيقة إلا امتدادا للسابقة، وقد ظن الناس أن عهد «رعمسيس الثالث» سيعيد للبلاد أيام عهد «رعمسيس الأكبر». والواقع أن سلطان الفراعنة قد أخذ في الضعف، في حين أن كهنة «آمون» قد أخذوا يستعيدون نفوذهم، ويستردون ثروتهم التي كانوا يمتلكونها قبل عهد الفوضى. ولم يكن يكفي كهنة «آمون» العظام أن يصبحوا مستقلين عن الملك، وأن يجعلوا وظيفتهم وراثية، بل أرادوا أن يحكموا الدولة، ويخلطوا ماليتهم بمالية الحكومة، ويسيطروا على الكهنة الآخرين، وقد كان الكاهن الأكبر منذ زمن بعيد الرئيس الأعلى لكل الآلهة، ولكن الإله «ست» سيد «أواريس» الذي أصبح «ست رعمسيس» أو «مرنبتاح» مقلقاً لآمون بمجرد وجوده هناك. وما دام «ست» هناك فإن القوم لا يمكن أن يصبحوا في أمان بالنسبة للمستقبل، وقد يكون من باب المبالغة أن نعتقد أن مطمح «آمون» الوحيد قد سبب الحرب الأهلية. حقا إن أتباع «ست» لم يكونوا فئة سهلة المعاملة، فحينما كانوا يسكنون إقليماً على الحدود، كان لديهم تقريباً – بالنسبة للذين يسكنون في الجهة الأخرى من حدودهم – كثير من علاقات التقارب بينهم وبين المصريين.

فقد كانت حقول «تانيس» مغمورة بالساميين قبل خروج بني إسرائيل، حتى بعد خروجهم. ويمكن القول بأن مصر كانت قبل نهاية الأسرة العشرين تقريباً مقسمة حزبين: أحدهما يمثل الحزب الوطني، والآخر الحزب الأجنبي.

ولم يفت أهالي «طيبة» أن ينابزوا أتباع «ست» بالألقاب التي كانوا يصفون بها الهكسوس، فقد كانوا يلقبونهم بالطاعون، والأنجاس، وقد كانوا يلومونهم على أنهم كانوا يؤدون نفس الشعائر التي يؤديها المصريون الآخرون، وأنهم يؤدون شعائر أخرى، وأنهم يحتقرون الحيوانات المقدسة، ويتكلمون لهجات لا يمكن فهمها. ولدينا كل الأسباب التي

تحملنا على الاعتقاد بأن هذه التوبيخات كانت صائبة في حدود معينة، وعلى ذلك فإن الحزبين كانا يتهيآن للقتال. وكان «أمنحتب» الكاهن الأكبر لآمون رئيس أتباع «آمون» الطيبيين، وكان رئيس أتباع «ست» كاهن من «هليوبوليس» ويدعى «أوسارسف»، وذلك لأنه كانت توجد بين «هليوبوليس» و«أواريس» صداقة قديمة تشبه التي كانت تربط السيد العالمي وسيد الأرضين صاحب هليوبوليس «رع» بالإله «ست» حامي سفينة الشمس ورب الرعد.

ولم تقم حرب قط دون مال. وقد اتفقت الصدف بشكل بارز على أن مقابر الملوك القدامى والأفراد، وهي التي كانت دائماً موضع احترام، قد بدأت تنهب من بداية السنة الثالثة عشرة من عهد «رعمسيس التاسع». ولم تتحرك العدالة لهذا الموضوع إلا بعد مضي أربع سنوات وقد كانت الخسائر أصابتها بشكل مريع، ولكن ماذا نعلم؟ نرى أن أمير مقابر «طيبة» قد أخذ في التقليل من شأن هذا النهب، وقد كان العدد الأكبر من المجرمين من موظفي الجبانة أو من أتباع الكاهن الأكبر لآمون. وتدل شواهد الأحوال على أن المال المقبوض عليه كان يعطى لأولئك الكهنة العظام.

ومن ثم يظهر أن «أمنحتب» كان يريد زيادة مالية خزانته بسلب متاع الموتى. ولما كانت الوثائق المؤرخة بالسنتين السادسة عشرة والسابعة عشرة لم تشر بأية إشارة لحرب أهلية. فالظن أن المناوشات لم تبدأ إلا بعد ذلك بزمن يسير. وقد أمدنا المؤرخ اليهودي «يوسفس» بتحقيق تاريخي عندما قال: إن الملك «سيتي» الذي كان يسمى كذلك «رعمسيس» كان عمره خمس سنوات. وقد وحدنا هذا الأمير بالملك «رعمسيس الحادي عشر». ويمكننا أن نعترف بأنه على أثر موت «رعمسيس العاشر» الذي لم يمكث على عرش الملك أكثر من ثلاث سنوات على ما نعلم كان الأمير الوارث للعرش لا يزال في طفولته، وفي هذه الحالة وجد الكاهن الأكبر «أمنحتب» سيد البلاد أن اللحظة المناسبة قد حلت لتحقيق خطط «آمون» وأتباعه.

وقد قام جيش من الجنوبيين لمقابلة الأنجاس الذين كان يقودهم «أوسارسف» وقد حصنوا مدينتهم وبحثوا لهم عن حلفاء، ولم يكن يخالجهم الخوف في أن يفتحوا حدود بلادهم لأعداء مصر الأعداء وهم الكنعانيون والعموريون والفينيقيون، ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء الإسرائيليين، وقد تخطوا الحدود بعدد يبلغ مائتي ألف

رجل كما يقول المؤرخون الإغريق، وهذا بطبيعة الحال رقم ضخم، ولكن ليس هناك محل للمعارضة في أن أهالي «أواريس» قد وصلهم مدد أجنبي. وقد كانت الواقعة الأولى في غير صالح الجنوبيين الذين لم يقاوموا ولم يعتقدوا في أنفسهم أنهم من القوة بحيث يمكنهم مقاومة الشاليين. وقد هجر «أمنحتب» مصر السفلى والعليا وذهب ليجد ثانية الفرعون الشاب عند نائب «كوش» الذي كان وقتئذ «بانحسي» وقد وضع العجل «أبيس» في مأمن، وكذلك الحيوانات المقدسة والتماثيل ذات الاحترام الكبير. وانتظر هناك إلى أن تواتيه الفرصة في حماية بلاد النوبة بالقرب من صخور أسوان، وقد انتشر الأنجاس على أثر ذلك في البلاد، وقد ازداد عددهم بأولئك الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه بنشر الفوضى، فلم يحترم أحد المعابد ولا المقابر ولا أملاك الأفراد. وقد سميت سنة خاصة في تلك الفترة «سنة الضباع». وهذه السنة من غير شك هي التي ظهر فيها الأنجاس في مقاطعة «طيبة». وهذا الوقت الفظيع كان لا يمكن أن يستمر إلى الآن. والواقع أن الجيش الذي يتحول إلى النهب لابد أن يكون عرضة لأن يهزمه أولئك الذين هزمهم في أول الأمر. وقد أعاد الكاهن الأكبر والملك تنظيم قواتهما، وقد وجدا في «بانحسي» و«حريحور» رئيسين قادرين، وعلى ذلك فقد الأنجاس «جبلين» ومصر الوسطى. وطردوا من كل مكان وتحصنوا بجدران «أواريس» كما فعل ذلك من قبل الهكسوس، وكما أخذت «أواريس» من قبل على يد الطيبيين. وقد ذبح أتباع «ست» في هذا النضال أو طردوا إلى سوريا، وقد هدمت تماماً المعابد والقصور كلها.

وهذا النصر قد عد بداية عهد جديد يسمى «عهد النهضة» تذكاراً لانتصار كل من «أمنمحات الأول» و«سيتي الأول» من قبل، وقد كان عصر كل منهما يسمى بهذا الاسم، ولكن مع ذلك نجد أن عصر النهضة الثالث هذا يختلف عن العصرين الأولين في أن حدوثه لم يتفق تماماً مع تغيير أسرى. وقد عاش «رعمسيس الحادي عشر» الذي حارب في الجانب المحق، وساعد على تخريب ما أسسه أجداده بضع سنين، وحافظ على لقبه الملكي، ولكن في الوقت نفسه كان قد قضى على أسرته.

وقد ظل الرعامسة محافظين على عرش البلاد أكثر من قرنين قبل ذلك، وقد كان سلطان الإله «ست» في مصر عظيماً طوال مدة حكمهم. وقد بدأ هذا العصر بتجديد ولادة، غير أن نهاية تجديد ولادة أخرى هي التي تعوزنا في النهاية، فقد سقطت الأسرة

العشرون، وذهب ملوكها إلى غير رجعة، وبدأت البلاد عصراً جديداً عاد بها إلى حالتها الأولى في أقدم عصورها عندما كانت مقسمة إلى مملكتين: مصر السفلى، ومصر العليا، وهذا ما سنشاهده في حياة مصر خلال الأسرة الواحدة والعشرين». انتهى[1].

وفي الواقع، فإننا هنا نجد مبرراً قوياً لاستعراض فقرات طويلة جداً كتلك السابقة من موسوعة د. سليم حسن، إذ أنها لا تحتاج لشرح أو توضيح للتدليل على أن تلك الأحداث هي أحداث الخروج الإسرائيلي من مصر، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن بني إسرائيل هم الهكسوس كما ذكرنا سابقاً في الكتاب الأول من موسوعتنا (وجادلهم بالتي هي أحسن)، أو أنهم على أقل تقدير قد اقتبسوا قصة الهكسوس كاملة، كتاريخ خاص بهم دونوه في توراتهم التي بين أيدينا.

وهنا يبدو أنه من المهم أن نفترض أن أسرة الرعامسة الأولى (الأسرة ١٩) والتي انتهت برعمسيس الثاني ومرنبتاح، عندما نقلت العاصمة السياسية والحربية للبلاد إلى الشمال الشرقي في مدينة (بر رعمسيس) لم يكونوا مدفوعين لذلك فقط لأنهم ينتمون لنفس المقاطعة، أو لأن هناك دم هكسوسي سامي يجري في عروقهم بدليل تبنيهم لعبادة الإله «ست» الذي كان يعبده الهكسوس كما قال كثير من المؤرخين، بل إن من المنطقي هنا أن نفترض أن هؤلاء الملوك كانوا قد أدركوا أن الخطر الأكبر على مصر قد أصبح يأتي في المقام الأول من الناحية الشرقية[2]، لذلك قاموا بنقل ثقلهم كله قريباً من تلك البوابة، وينبغي لنا أن نذكر أن فراعنة الأسرة ١٩ (حتى رعمسيس الثاني ومرنبتاح) وقد تمكنوا من الحفاظ على استقلال مصر من تلك الجهة تماماً، أما رعامسة الأسرة العشرين فقد بدأ عهدهم مباشرة بعد غزو آسيوي للبلاد، وتمكن ملك آسيوي من الدم الهكسوسي من تولي العرش المصري، حتى أقصاه عنه (ستنخت) والد رعمسيس الثالث، وبالمثل فقد انتهى عهد تلك الأسرة بغزو آسيوي – هكسوسي آخر لمصر انتهى بـ (حرب الأنجاس) كما أطلقت عليها الوثائق المصرية، وعلى ذلك فإن تلك الأسرة العشرين قد بدأت وانتهت وسط زخم من الغزو والاضطراب الآسيوي شجعت عليه عوامل كثيرة، وتلك الأسرة بالذات هي زمن (الرعامسة) المفترض أن يحدث فيه الخروج النهائي لبني إسرائيل.

---

(١) د. سليم الحسن، المرجع السابق، ص٥٣٠ – ٥٤٥.

(٢) ناحية فلسطين وسوريا.

وفي الواقع، فإن (حرب الأنجاس) كانت حدثاً هائلاً في التاريخ المصري كله، لم يلتفت الجميع إلى أنه هو المناظر والمطابق لأحداث الخروج الإسرائيلي العبراني الهكسوسي من مصر في النهاية، وقد اختفى هذا الفرعون (رعمسيس التاسع) بطريقة غامضة كما سنوضح من التعليق الأثري على مقبرته ومومياته، وبالمثل انتهى هامان (آمون حتب) بعد ذلك بسنوات قليلة شهدت اضطراباً عظيماً، واغتصاباً للملك من فرعون غير معروف الهوية (رعمسيس العاشر)، قضى ثلاث سنوات على الأكثر في الحكم، ومات بشكل مفاجئ، ربما كنتيجة للثورات الداخلية الهائلة التي عمت عصره، ولم يخلف بعده آثاراً، وسقط الحكم بعد ذلك تماماً في أيدي كهنة آمون في الجنوب، وأسرة أخرى قد تكون غير مصرية في الشمال، وإن ظل آخر ملوك الرعامسة سنوات قليلة يحمل لقب الفرعون فقط ولا يحمل أي شيء من مميزاته، إلى أن اختفى هو الآخر، واختفت معه مملكة الرعامسة من على الأرض نهائياً.

وعلينا ونحن نطالع الفقرات السابقة من موسوعة د. سليم حسن أن نتذكر أن التاريخ الفرعوني الوثائقي، كان يعتمد دائماً على إخفاء الهزائم المرة، وكذلك إلى إثبات انتصارات وهمية قد لا تكون حدثت بالمرة. وعلى ذلك فإن السطور الختامية للأحداث والتي تفترض انتصار المصريين في النهاية على الأنجاس وخلافه، قد لا تعدو ضرباً من الخيال المعتاد في تلك الأحوال. وعلينا أن نعود لتلك الفقرات التاريخية ونقارنها بتحليل الوثائق الدينية التي تصف تلك الفترة، ليمكننا الجزم بأن تلك المرحلة كانت هي مرحلة الخروج الإسرائيلي، والتي بدأت فعلاً من مدينة (بر رعمسيس) الشمالية في أرض (جوشن) التي كان الأنجاس[1] يستوطنونها، وانتهت بخروج العبرانيين من مصر تجاه الشرق، واعتبار المصريون أن ذلك الطرد كان نصراً في النهاية.

علينا الآن أن نعود لنتصفح سجلات هذا الفرعون وعهده، يقول د. سليم حسن عن مقبرة هذا الفرعون (رعمسيس التاسع) ما نصه:

[لم يعثر على مومية هذا الفرعون، والظاهر أنها لم تفلت من يد اللصوص الذين طالما اقتفى أثرهم في عهده، وتدل شواهد الأحوال على أنها كانت قد فقدت عندما خبأ الكهنة موميات الملوك المختلفين، لأنها لم توجد في قبر (أمنحتب الثاني) ولا في خبيئة

(١) كان المصريون ينظرون للعبرانيين على أنهم أنجاس.

(الدير البحري)، ومع ذلك فقد وجد صندوق صغير باسمه خاص بأثاث دفنه قد حمله الكهنة إلى خبيئة (الدير البحري). وكان قبر هذا الفرعون مفتوحاً في عهد البطالمة، وقد نظف في الأزمان الحديثة، ويحمل (رقم ٦). وهو يحتوي على حجرتين صغيرتين عند المدخل، ثم ثلاثة ممرات وحجرتين كبيرتين، ثم ممر رابع، وأخيراً حجرة الدفن. ومعظم النقوش التي على الجدران كانت قد رسمت فقط ولم تحفر، وتختلف أجزاء منها في كتابتها من حيث النوع والسرعة لدرجة أنه قد وجد على جدرانه كتابة بالهيراطيقية الخالصة بدلاً من الهيروغليفية المعتادة]. انتهى[1].

ويمكننا من هذا الوصف السابق التوقف عند حقيقتين هما:

١. الاختفاء الكامل لمومياء هذا الفرعون.

٢. الإنهاء المتعجل لأعمال المقبرة مما يشير إلى الموت المفاجئ لهذا الفرعون، وكذلك اضطراب الأحوال بعده مما منع حدوث أية تشطيبات في المقبرة من خلفه، بما يليق بمقام فرعون مصر.

كما أن الأثريين قد لاحظوا ملاحظة مدهشة أوردها المصدر السابق، ولا تخفى دلالتها على أحد، يقول د. سليم حسن:

[«ويلاحظ في صورة هذا الملك أن شاربه وخديه قد نبت فيها الشعر على غير العادة وذلك يدل على أن الملك كان حزيناً وأنه قد أرخى لحيته كما نشاهد ذلك في أيامنا، وقد كتب عن هذه العادة (هردوت) والأثري _كرستوف.

(راجع Bul. Institt. Fr. D>Archeol. Tom, XLV. Pp. 197)][2] انتهى.

أما عن عشرات البرديات التي وجدت في عصر هذا الفرعون، وتعبر عن أحواله، فكلها تدور حول حقيقة واحدة هي أهوال السلب والنهب والتخريب التي دمغت هذا العصر بأكمله، وكذلك حالة الفقر المزرية التي أدت إلى ذلك، بالإضافة أيضاً إلى ما كتب في بعضها عن حالة حرب غامضة[3].

(١) د. سليم حسن، مرجع سابق، ص٥١٥.

(٢) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨٧، ص٥١٧.

(٣) يقول د. سليم حسن : «ولدينا إشارات عدة في أوراق البردى من هذا العهد تدل على الفوضى=

أما عن آثار الوزير الكاهن أمنحتب (هامان) فهي بدورها تعكس كثيراً من المؤشرات التي تميز هذا العصر، وتشير تلك الوثائق في مجملها إلى عدة أحداث أهمها هو تسلط هذا الوزير الكاهن على شئون الحكم في مصر لفترة طويلة، استطاع فيها أن ينزع الكثير من نفوذ ومهام وخصائص الفرعون ذاته، لنفسه ولصالح التنظيم الكهنوتي لكهنة آمون، الذين ازداد نفوذهم بدرجة مرعبة، وأصبحت لهم مخصصات عقارية ومالية مستقلة، لا تخضع للضرائب أو السلطة السياسية.

=التي يمكن أن تكون لها علاقة بالفترة التي أبعد فيها (أمنحتب). وقد أصاب الأستاذ سبيجلبرج عندما لاحظ أن نفس الحادث قد ذكر في الورقة رقم ١٠٠٥٢ بالمتحف البريطاني (ص١٣ ص٢٤) حيث نجد شاهداً اسمه «موت مويا» يقول عن شخص معين: «والآن عندما وقع حرب الكاهن الأول سرق هذا الرجل سلعاً ملك والدي». وإبعاد (أمنحتب) كان قد نفذ بشدة بالغة لدرجة أنه كان يستحق أن يطلق عليه اسم «حرب».

وكذلك نجد في متن «ورقة ماير» (pap. Mayer A 13, b2) أن بعض اللصوص قد ذكروا بأنهم قتلوا «في حرب الإقليم الشمالي»، وبعد ذلك نقرأ في نفس السطر التالي عن اللصوص الذين ذبحهم (بينحسي). وهذه الواقعة في ذاتها يمكن أن تكون حالة قتل عادية غير أنها تعيد إلى ذاكرتنا فقرة جاءت في بردية (Pap B. M. 10054 (10 – 11 ff) بالمتحف البريطاني. حيث نجد امرأة تدعى «اسي» زوج «كر» قد اتهمت بأنها قد تسلمت فضة مسروقة من زوجها وعندما أنكرت ذلك سئلت أن تفسر «من أين لها هؤلاء العبيد الذين تملكهم». وقد وجد أن تفسيرها غير مقنع، وأحضر أحد العبيد، وسئل كيف أنه أصبح في خدمتها؟! فقال: «عندما خرب (بينحسي) بلدة (حارداي) حصل على النوبي الصغير (بوتح آمون) ثم اشتراني النوبي (بتنسخن) منه. وقد أعطاني دنبين من الفضة (لاحظ مقدار ثمن العبد هنا). وبعد أن قتل اشتراني البستاني (كر) بثمن». ونحن نعلم أن (حارداي) هي (سينو بوليس) (Cynopolis) عاصمة مقاطعة (ابن آوى)، وكانت قد خربت على يد رجل يدعى (بينحسي) النوبي، ويمكن أن نأخذ كلمة نوبي التي ذكرت هنا، والتي جاءت في فقرة (ورقة ماير A) لا على أنها علم بل بمعناها الحرفي «هذا النوبي»، أي ذلك النوبي الشهير الذي يعرفه كل إنسان في ذلك العهد. ومما تجدر ملاحظته أن العبد بعد تخريب المدينة المذكورة انتقل من يد نوبي لآخر على التوالي لاقى ثانيهما حتفه ذبحاً. والآن يتساءل الإنسان هل نفهم أن هذه الحرب كانت مجرد حرب محلية في مصر؟ أو هل حدث غزو نوبي اخترق البلاد شمالاً حتى مقاطعة (ابن آوى)؟ وهل قتل النوبي الثاني المالك للعبد (بتنسخن) يشير إلى استرجاع المصريين للمدينة؟

وعلى أية حال هل هذه الحرب هي التي أشير إليها في فقرة سلفت بمثابة «الحرب في الإقليم الشمالي»؟ انتهى. المرجع السابق، ج٨، ص٤٩٩-٥٠٠.

كما أن هذا الوزير كانت له مهام إدارية واسعة، تشمل أعمال البناء والأعمال الحربية، وتميز عصره باضطرابات هائلة، تمثلت في الثورات الشعبية، والحرب الأهلية الداخلية، والصراع الدامي مع الأجانب، الذين توقفوا عن العمل كسخرة في المعابد والضياع المصرية واشتركوا أيضاً في أعمال نهب واسعة لثروات مصر التاريخية المدفونة في المقابر الملكية والمعابد... إلخ، وقد أطلق على مرحلة الصراع مع الأجانب والتي أسمتها الوثائق (حرب الأنجاس) اسم (حرب الوزير أمنحتب) وسط الأوساط الشعبية المصرية، كما أن هناك مؤشرات عديدة تدل على أن هذا الكاهن نفسه قد تواطأ مع كهنة المعابد المصرية لنهب المزيد من المقدسات المصرية توفيراً للمال اللازم لتلك الحروب التي خاضها، وهكذا سقطت أقدس المعالم الدينية والتاريخية المصرية وسط تخريب مفزع من الأجانب ومن السلطة المصرية على السواء.

كما تشير الوثائق إلى أن عصر الوزير أمنحتب هذا قد اتسم بدورة فقر مدقع، وأنه خسر حروبه مع الأنجاس في أول الأمر، واضطر للجوء إلى كوش (السودان) مع الفرعون الطفل الذي ربما هو الوريث الأقرب شرعية للحكم (رعمسيس الحادي عشر)، وذلك بعد الاختفاء الغامض للفرعون (رعمسيس التاسع)، واستيلاء فرعون غاصب لم تعترف به الوثائق المصرية على سدة الحكم وهو (رعمسيس العاشر)، ولم يبق في الحكم إلا ثلاث سنوات مضطربة على الأكثر، اختفى بعدها بدوره بشكل غامض.

أما لاحقاً فقد عاد الكاهن أمنحتب مصحوباً بالفرعون الصغير (رعمسيس الحادي عشر) وسط قوات كوشية، محاولاً استبقاء ماء وجهه بالادعاء بأنه انتصر على فلول الأنجاس، ولكن انشطرت مصر في تلك الفترة إلى قسمين منفصلين، ولم يستطع (رعمسيس الحادي عشر)، الفرعون الضعيف والأخير من سلالة الرعامسة، أن يعود لعاصمة أجداده في الشمال (بر رعمسيس) تلك التي استولت عليها أسرة (بنبدد)، وقبع في طيبة في الجنوب تحت رحمة وسيطرة كهنة آمون.

وقد اختفى الوزير أمنحتب هذا بشكل غامض تماماً بعد أن تم عزله من مناصبه، وتلا ذلك مرحلة حاول فيها المصريون النهوض بأنفسهم أسموها (مرحلة النهضة) أو (القيام) أو (تجديد الولادة) «وحم مسوت»، والذي اعتبرته جمهرة المؤرخين انقلاباً عسكرياً في صبغة دينية بلا جدوى.

وعلينا الآن العودة للوثائق المصرية المختصة بذلك الوزير الكاهن أو الكاهن الوزير، لنرى في تراجمها انعكاساً لحقائق تلك الفترة. يقول د. سليم حسن:

«وكذلك كان (أمنحتب) مثل والده يشغل في القصر الملكي وظيفتي سكرتير الملك ومدير البيت، وكان كذلك مهندس عمارة. وفي الحق تلقبه النقوش فقط: المدير العظيم لكل أشغال جلالته. ومن المحتمل أنه كان مكلفاً ببناء المباني القليلة التي شرع في إقامتها (رعمسيس التاسع) في (طيبة)». انتهى[1]

إلا أن المصدر السابق يعود ثانية، فيذكر لنا لقباً آخر حمله هذا الوزير هو: [فاتح أبواب السماء ليرى من يوجد فيها][2] انتهى، وقد ذكر د. سليم حسن أن أبواب السماء تعني (أبواب المعبد)، أما نحن فنرى فيها صدى لما أورده القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ... ﴿٣٧﴾﴾ [غافر].

وعموماً فقد اتسمت آثار هذا الوزير وفرعون بخاصية تدمير شديد عمدي في معظم متونها لاحظه كل الأثريين. ومن أشهر وأعجب تلك المتون المتعلقة بهذا الكاهن تلك اللوحة التي تظهر الكاهن بنفس حجم الفرعون، وهذه سابقة لا مثيل لها في التاريخ الفرعوني كله، إذ تشير إلى تساوي في النفوذ والسلطة بل والقداسة أيضاً بين الفرعون والوزير الكاهن، يصف د. سليم حسن تلك اللوحة بقوله:

«ويلاحظ هنا أن الكاهن الأكبر قد رسم بنفس الحجم الذي رسم به الفرعون، كما شاهدنا في الصورة التي على الباب الخلفي، والفرق الوحيد الذي يميز الملك عن (أمنحتب) الكاهن الأول، هو أن الملك كان يقف على طوار صغير على حين أن قدمي الكاهن الأكبر كانتا تقفان على الأرض. ولما كان المثال يقصد أن يظهر بطريقة ما التساوي في الطول بين صورة الفرعون، وصورة الكاهن الأكبر، فإنه قد صور المديرين – اللذين كانا يقفان بجوار (أمنحتب) للقيام بإلباسه أو تضميخه بالعطور – بحجم أقل منه مرتين، إذ لا يكاد الواحد منهما يصل في الرسم إلى حزامه». انتهى[3]

---

(١) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٤٨٧.

(٢) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٤٨٩.

(٣) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٤٩٢.

ويعلق نفس المؤرخ على نقش آخر على جدار الكرنك بقوله:

«والنقش السابق على الرغم مما جاء فيه من عبارات مبهمة يدلنا على أن بعض الدخل الذي كانت تجبيه فيما سبق الخزانة الملكية لأجل أن تدفعه إلى خزانة (آمون) كان يجب منذ الآن أن يجبى مباشرة بوساطة كتاب المعبد ثم يدفع مباشرة إلى خزانة (آمون). وعلى ذلك أصبحت مالية (آمون) مستقلة في صورة ما، وحل الكاهن الأكبر محل الفرعون في جبايتها ومراقبتها، واستعمال جزء من دخل الحكومة. ومن البديهي أن (أمنحتب) الذي كان على علم بما يجري في البلاد، والذي كان يخاف على منفعته الشخصية، قد ضغط على (رعمسيس التاسع) الضعيف. والواقع أن مصر كانت في عهد أواخر ملوك الرعامسة تنحدر سنة بعد سنة نحو الفقر، ولم يكن لدى الفراعنة مال لإرسال الحملات إلى بلاد النوبة أو إلى سوريا وكان أمر الدلتا و(منف) قد أهمل، ووقفت الأعمال العامة، وقطعت الهبات التي كان يغدقها الفرعون على كهنة (طيبة)، ولولا أن (أمنحتب) هذا الرجل النافذ البصيرة قد نجح كما رأينا في تحويل جزء من موارد الدولة العادية لمنفعة (بيت آمون) لساءت حالتهم». انتهى[1]

ثم يقول أيضاً: [والسنين الأخيرة من عهد «نفر كا رع» «رعمسيس التاسع» كانت سنين مليئة بالشدة والاضطراب][2] انتهى، ويحدثنا المؤرخ في النهاية قائلاً عن الكاهن (أمنحتب) ونهاية عهده:

«والواقع أننا نجهل كيف انتهت حياته. ومن المحتمل إذن أنه قد اختفى خلال وقوع إحدى تلك الحوادث الخطيرة التي كانت قد أثرت عليه كما أثرت على الوزير نفسه فجعلته يعتزل الحكم أو يجبر على اعتزاله. ومن المحتمل إذن أنه كان قد أجبر على التخلي عن مهام أعماله. ومن الحقائق العظيمة التي لها أهميتها أنه وجد على التوابيت الخشبية التي تنسب إليه وهي الموجودة بمتحف اللوفر عدد عظيم من ألقابه الدينية إلا لقب الكاهن الأكبر فإنه لم يذكر. ومن ثم يمكن للإنسان أن يستنبط أنه عند موته لم يكن يشغل منصب رئاسة الكهانة، ويحتمل أنه قد حل محله وقتئذ الكاهن الأكبر (حريحور) ويلاحظ كذلك أنه لم يصل إلينا من تماثيله إلا تمثال واحد ممزق بدرجة مريعة، فهل

(١) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٤٩٥.

(٢) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٤٩٩.

هذا من طريق المصادفة أم حدث عمداً؟، ومن جهة أخرى هل هذه التوابيت خاصة به حقيقة؟ والواقع أننا لسنا متأكدين من هذا، ويعضد هذا الشك أن المخروط الجنازي الوحيد الذي وصل (راجع Wiedemann Grabkegel. 113) إلينا باسمه قد ذكر عليه بجانب لقبه: السكرتير والمدير العظيم للبيت الملكي، لقب الكاهن الأول (لآمون رع). وعلى ذلك لن نعطي رأياً قاطعاً في هذا الموضوع عن نهاية عهد (أمنحتب) بوصفه الكاهن الأكبر (لآمون) إلى أن تصل إلينا معلومات وثيقة يعتمد عليها». انتهى[1].

وفي النهاية يورد هذا المؤرخ الألمعي، مقارنة تاريخية لها دلالة مهمة إذ يقول عن الكاهن (حريحور) الذي استولى على السلطة السياسية في مصر خلفاً للكاهن (أمنحتب) وأصبح فرعوناً يجمع السلطتين الدينية والسياسية في يديه:

«ولا نزاع في أن «عصر النهضة» إذن كان البادئ له هو «حريحور» وأنه لم يكن في مقدوره أن يحرز النصر النهائي الذي ناله بتولي الملك إلا بالجمع بين السلطتين الدينية والإدارية. ولما تم له كل ما أراد أصبح الفرعون في حالة من الضعف تشبه حالة خليفة المسلمين إبان سقوط الدولة العباسية في بغداد والمطلع على تاريخ آخر خلفاء العباسيين يجد بينه وبين تاريخ مصر في أواخر عهد (رعمسيس الحادي عشر) أوجه شبه كثيرة – وبخاصة من الوجهة الحربية والدينية – فنرى أنه في كل قد فاز رجال الجندية على رجال الدين مع المحافظة على هيبة رجال الدين ظاهراً، وسلبهم سلطتهم فعلاً». انتهى[2].

وطبعاً فالكل يعلم أن هذا الانهيار في الدولة العباسية، إنما كان نتيجة عوامل كثيرة، فجرها في النهاية غزو التتار الهمج لأرض الدولة وتدمير كل المراكز الحضارية والثقافية فيها.. وهكذا فتلك هي فرضيتنا – غير المسبوقة بفضل الله تعالى – عن عصر الخروج الإسرائيلي من مصر وشخصية فرعون الخروج، فقد سبق طرح العديد من الشخصيات الفرعونية التاريخية لسد تلك الفجوة، مثل رعمسيس الثاني أو ابنه مرنبتاح أو تحتمس الثالث أو أمنحتب الثاني، أو حتى فرعون من فراعنة الهكسوس، وعموماً فقد تم دحض هذه الفرضيات – كل على حدة – لأنها جميعاً تقفز على حقائق تاريخية متعددة، ولا تستند إلى أية وثائق تاريخية أو دينية، وأيضاً دحضتها الكثير من المكتشفات

(١) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٥٠٢-٥٠٣.
(٢) د. سليم حسن، مرجع سابق، ج٨، ص٦١٨-٦١٩.

الأثرية، وبذلك لم تقو جميعها على تقديم تصور كامل وشامل لكل معطيات هذا العصر كما حاولنا نحن في هذا الطرح.

ولعله من المفيد، في هذا المقام، أن نُري القارئ بعض الجدل التاريخي حول شخصية فرعون الخروج، فمن الآراء الأكثر ذيوعاً وشهرة ذلك الافتراض الشائع بأن فرعون الخروج هو (رعمسيس الثاني) أو ابنه (مرنبتاح)، وسنضرب مثالاً هنا عن الجدل التاريخي الدائر حول تلك الفرضيات المتعددة، موضحين تضاربها وحيرة المؤرخين حيالها، ومثبتين وجهة نظرنا، ولذلك سنتخذ كتاب (الواقع والأسطورة في التورات) لـ (زينون كاسيدوفسكي)، ذلك الكتاب الذي يجمع ويبلور ويلخص ويوفق تقريباً كل آراء المؤرخين والباحثين المهتمين بالشأن التوراتي في إطار إضفاء العقلانية والمنطق على أحداثها الأسطورية، فعلى الرغم من أن الكاتب وفي الفصل الخاص بموسى وأحداث الخروج، يحاول رسم الأحداث على خلفية عصر الفرعونين المفترضين (رعمسيس الثاني أو مرنبتاح)، مسايراً بذلك الفكر السائد، وغير مخف للشكوك المحيطة بهما كفرعون للخروج مركزاً بالذات على حقيقة اكتشاف مومياء الفرعونين، ونتائج الفحص الذي أجري عليهما، وهكذا خلص إلى أنه (بذلك سقطت الأسطورة التوراتية أمام صرامة المنطق العلمي).. وعلى الرغم من ذلك فلم يتخل الكاتب عن الخلفية التاريخية الخاصة بهذين الفرعونين في رسم أحداثه، كما لم يقم بطرح أي فرعون آخر أو زمن مغاير لوقوع الأحداث. إلا أن الكاتب بعد أن نفض يده من الموضوع، عاد في سياق مناقشته لأحداث فترة الخروج وطرح السؤال التالي:

كيف استطاعت القبائل الإسرائيلية البدائية، سيئة التسليح، أن تهاجم بلاداً قطعت أشواطاً بعيدة في عمق التطور الحضاري، بلاداً تملك الكثير من القلاع والمدن الحصينة والجيوش المدربة تدريباً ممتازاً والمسلحة تسليحاً حديثاً جداً؟

ولم يجد الكاتب سنداً من التاريخ يجيب على تساؤله هذا إلا التحليل التالي[1]:

[لقد كانت مصر تنظر إلى ملوك كنعان كتابعين لها، فتركت لهم شيئاً من الحرية في امتلاك فصائل عسكرية مسلحة بالعربات، بل وكانت تنظر بعين الرضا إلى الحروب

(١) جميع الهوامش السفلية الواردة في التحليل بتصرف من المؤلف.

الأهلية التي تندلع بينهم لأنها كانت إحدى وسائل ترسيخ زعامتها هنا كطرف ثالث قوي. وهكذا نرى أن المبدأ السياسي الذي صاغه الرومان «divide et imper» (فرق تسد) كان قد استخدم من قبل فراعنة مصر منذ القدم.

وكانت الحاميات العسكرية المصرية متواجدة في المدن الكنعانية الكبرى كما كانت توجد في تلك المدن مقرات ممثلي الفرعون الذين كانت مهمتهم الأساسية جمع الإتاوات. وكانت هذه الأخيرة قاسية ومرهقة. زد على ذلك أن جباة الضرائب أنفسهم كانوا لصوصاً مرتشين نهبوا خيرات البلاد. وكانت الحاميات العسكرية المصرية تتألف من المرتزقة الذين ينتسبون إلى مختلف الأجناس والأقوام. ولما كانوا غالباً ما يخدعونهم عند توزيع التموين ولا يدفعون لهم رواتبهم الشهرية فقد جابوا القرى ونهبوا ما يقع تحت أيديهم كله.

لقد ساق جنود فرعون سكان كنعان إلى أعمال السخرة في بناء القصور والتحصينات الدفاعية وهناك أُذلوا إذلال العبيد وانخفض مستوى معيشتهم أدنى وأدنى وقل عددهم. وهكذا غدت كنعان على أبواب الإفلاس بعد أن كانت بلاداً مزدهرة.

ولقد انعكست عملية إفلاس كنعان تلك وإفقارها في بعض فصول كتابي يشوع بن نون والقضاة. وثمة معطيات عنها في وثائق تل العمارنة وغيرها من المكتشفات واللقى الأرخيولوجية. فقصور النبلاء من تلك الفترة كانت في وضع مزر وانهارت التحصينات الدفاعية التي بنيت حول المدن تباعاً. وما يدل على انتشار الفقر العام آنئذ هو قلة أدوات البذخ بصورة ملفتة للنظر. وهكذا تحولت كنعان في تلك الفترة إلى أرض خاوية متخلفة.

كنا قد أشرنا سابقاً إلى أن رمسيس الثاني عقد معاهدة سلام مع الحثيين بعد حرب استمرت سنوات طويلة. وبعد وفاته تعرضت مصر لهجوم شعوب هندوأوروبية أطلق عليها اسم «شعوب البحر». وكانت تلك الشعوب قد جاءت عبر اليونان وآسيا الصغرى وقضت على دولة الحثيين وأخضعت ساحل المتوسط ثم هاجمت وادي النيل. وقد استطاع الفرعون مرنيبت أن يصد تلك الغزوة ولكن الحرب أضعفت مصر كثيراً. وأثناء حكم الفراعنة الأخيرين من الأسرة التاسعة عشرة كانت مصر تعيش فوضى وخراباً حقيقيين.

وفي تلك الفترة اندلعت واحدة من الانتفاضات الكثيرة التي قام بها الفلاحون والحرفيون والعبيد وانقسمت مصر إلى عدد من الدول الصغيرة المستقلة وانفجر صراع حاد على عروش الفراعنة.

وأخيراً استطاعت العائلة العشرون[1] أن تقيم سلطتها على دولة مصر كلها. واستطاع فرعونها الثاني، رمسيس الثالث، أن يصد الهجوم الجديد الذي شنته «شعوب البحر» على مصر وأن يحقق عليها انتصاراً حاسماً في المعركة البحرية التي وقعت قرب بيلوزيوم. ولكن خلفاءه كانوا حكاماً ضعفاء فعمت البلاد الفوضى وكثر عدد الانتفاضات. أما المذنب الرئيس في ذلك كله فهم الكهنة الذين اغتصبوا القسم الأعظم من الأراضي الزراعية ورفضوا تزويد السكان الجائعين بالمواد التموينية.

تلك الأحداث كانت ضربة قاصمة لسمعة مصر. وأسطع مثال على الاحتقار الذي كانت تكنه الشعوب الأخرى لمصر في تلك الحقبة جاء في تقرير السفير المصري الذي أرسله كهنة مصر إلى لبنان لشراء خشب الأرز لبناء المركب المقدس للإله آمون رع. أبحر السفير، ويدعى انوامون، من مصر إلى جبيل. وتوقف في طريقه في ميناء دور حيث سرق منه أحد البحارة الذهب الذي يحمله كله ليدفعه ثمن خشب الأرز. وعرف الجميع أن اللص يختبئ في المدينة فطالب المصريون بتسليمه. لكن الحاكم المحلي رفض الطلب مفضلاً، كما يبدو، أن يبقي الغنيمة لنفسه. فقد سوَّف حسم المسألة طيلة أيام تسعة سخر أثناءها أشد السخرية من سفير دولة كانت فيما مضى جبارة مرهوبة الجوانب. وفي نهاية المطاف وجد السفير نفسه مرغماً أن يتابع طريقه خالي الوفاض[2].

(١) الرعامسة المتأخرون – المؤلف.

(٢) [ملخص القصة: ففي اليوم السادس عشر من الشهر الحادي عشر من السنة الخامسة في عهد الفرعون (رعمسيس الحادي عشر) غادر (ونآمون) طيبة إلى تانيس وقدم أوراق اعتماده للمللك (نسو بنبدد) فيها فأحسن استقباله، وبعد أن غادر طيبة بخمسة عشر يوماً، أي في اليوم الأول من الشهر الثاني، أقلع من تانيس في البحر الأبيض في سفينة تجارية يقودها بحار سوري، ولما وصل إلى بلاد (دور) وجد أن الذهب والفضة التي أحضرها معه قد سرقت، وكانت (دور) وقتئذ مملكة صغيرة يحكمها قوم من (الثكل) الذين كانوا قد أخذوا مع الفلسطينيين يستوطنون سوريا في عهد (رعمسيس الثالث) منذ حوالي ثمانين سنة خلت من ذلك العهد. وقد كانوا آخذين في الزحف دائماً نحو الجنوب بعد الهزيمة التي لاقوها على يد (رعمسيس الثالث) في=

=السنة الثامنة من حكمه، وقد استوطنوا على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بمثابة رعايا لفرعون مصر، وبعد موت (رعمسيس الثالث) لابد أنهم كانوا قد نالوا استقلالهم بسرعة. ولم يعامل رئيس الثكل (ونآمون) معاملة مرضية من أجل فقده ما كان يحمله معه من نفائس، وبعد أن مكث عنده (ونآمون) تسعة أيام أقلع شمالاً إلى بلدة «صور» (وهنا يلاحظ أن الجزء الذي يصف فيه ما حدث له في رحلته من (دور) إلى (صور) قد فقد من الأصل)، وفي طريقه من (صور) إلى (جبيل) قابل بعض أهالي (ثكل) ومعهم حقيبة فيها فضة ووزنها ثلاثون دبناً (الدبن ٩١ جراماً)، ولما كان قد فقد واحداً وثلاثين دبناً من الفضة فإنه أخذ الحقيبة رهينة عنده. وقد وصل إلى (جبيل) بعد مضي أربعة أشهر واثنا عشر يوماً من رحيله من (طيبة)، ولما كان قد سافر في سفينة تجارية عادية وليس في سفينة خاصة من سفن الملك (نسو بنبدد)، ولما لم يكن معه كذلك هدايا ثمينة، وهي المظاهر العادية التي كان يظهر بها المبعوثون المصريون السابقون له إلى هذه الأصقاع، فقد رفض (زاكار بعل) أمير (جبيل) أن يستقبله وأمره بالرحيل. وبعد مضي تسعة عشر يوماً استولت على أحد شباب الأشراف الذين كانوا في خدمة الأمير غيبوبة تنبؤية، وقد طلب هذا الشاب في خلال غيبوبته إلى أولي الأمر أن يعامل (ونآمون) وإلهه (آمون الطريق) معاملة كريمة.

وفي الوقت الذي اعتزم فيه (ونآمون) العودة إلى مصر طلب إلى قصر (زاكار بعل)، ولكن لما لم يكن معه وقتئذ نقود، هذا إلى تركه أوراق اعتماده جهلاً منه مع (نسو بنبدد) في (تانيس) ولم يكن معه إلا تمثال (آمون) الذي سبق ذكره وقد كان المفروض فيه أنه يمنح الحياة والصحة، ولكن على ما يظهر لم يكن له مقام يذكر عند السوريين، لكل هذا لم يعامل بالاحترام اللائق به، إذ نرى أنه احتقر ما (لحريحور) والإله (آمون) من حقوق في هذه البلاد، وفي الوقت نفسه برهن (زاكار بعل) – من الوثائق التي عنده – على أن آباءه كانوا يأخذون ثمناً للأخشاب التي كانت ترسل إلى مصر، وعلى ذلك أرسل (نسو بنبدد) يطلب إلى الأخير إرسال نقود، وقد أظهر الأمير حسن استعداده لإرسال خشب ثقيل في الحال إلى مصر لهيكل السفينة. وقد عاد الرسول من عند (نسو بنبدد) مدة ثمانية وأربعين يوماً ومعه جزء من ثمن الخشب المطلوب، وعلى ذلك أرسل (زاكار بعل) ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور لقطع بقية الأخشاب وإحضارها.

وبعد مضي حوالي ثمانية شهور من مغادرة (ونآمون) مصر كان الخشب قد جهز، وقد أعطاه (زاكار بعل) (ونآمون) وقال له بشيء من المداعبة العابثة أنه قد عومل معاملة أحسن من التي عومل بها آخر مبعوثين من مصر الذين حجزوا في (جبيل) سبع عشرة سنة وماتوا هناك، وإثباتاً لذلك كلف الأمير أحد أتباعه ليقود (ونآمون) حتى قبره ويريه له. غير أن (ونآمون) أبى ذلك وسلم مودعاً، ووعد أن يعمل على دفع ما تبقى من ثمن الخشب، ولكن حدث أنه لما كان على أهبة الإقلاع ظهرت في عرض البحر عدة سفن لأهل (ثكل) غرضها القبض على (ونآمون)، وكان سبب ذلك بلا شك أخذه للفضة. وعندئذ جلس (ونآمون) التعس الحظ على الشاطئ وأخذ ينتحب، وعندما سمع (زاكار بعل) بما حاق به أرسل إليه رسله يطمئنونه ومعهم طعام ومغنية مصرية لتسري عنه، وفي الصباح قابل الأمير (الثكل) وأرسل (ونآمون) إلى البحر، وبطريقة ما تجنب (الثكل) غير أن ريحاً مضادة حملته إلى (قبرص) (ألاسا) وكان على وشك=

وكانت تنتظره في جبيل إهانات أخرى أشد مضاضة. فما أن علم حاكم تلك المدينة الفينقية أن السفير وصل بغير نقود حتى صادر سفينته وأعلنه شخصاً غير مرغوب فيه وعليه أن يغادر البلاد على الفور. وبما أن (أونوامون) سلب سفينته فلم يكن بمقدوره أن ينفذ أمر الحاكم بالسرعة المطلوبة ولما أراد أن يغادر البلاد على متن سفينة أخرى اعتقلوه. وبعد مشاحنات طويلة نال السفير فيها غير قليل من التهكم والهزء أذنوا له أن يرسل موفداً إلى مصر يأتيه بالنقود والسلع كي يسترد السفينة ويشتري خشب الأرز. ويبدو أن حاكم جبيل قد استغل ضعف مصر فطلب ثمناً باهظاً لشجر الأرز. فإلى جانب الذهب والفضة حصل على عشرة أردية ملكية من الحرير الفاخر وخمس مائة لفيفة من ورق البردى وخمس مائة جلد من جلود الثيران وخمس مائة شلة من الحبال وعشرين كيساً من العدس وثلاثين قفة من السمك.

لقد سارت عملية ضعف جبروت مصر متوازية مع تزايد الفوضى السياسية في آسيا. فقد انهارت الدولة الحثية تحت ضربات «شعوب البحر». وكانت بابل ضعيفة في ظل حكم العائلة الكاسية وشكل تنامي جبروت آشور وعيلام خطراً جدياً على وجودها. لقد كانت تلك واحدة من الحقب النادرة في تاريخ العالم القديم عندما لم تتصادم فيها المساعي التوسعية لكل من آسيا ومصر في بلاد الكنعانيين.

لقد أحس الحكام الكنعانيون الذين كانوا تابعين لمصر بأنهم مستقلون وسادة في دولهم. فسعوا لتوسيع حدود بلادهم الصغيرة واشتعلت بينهم حروب مريرة في سبيل كل شبر من الأرض. لقد كانت البلاد مبعثرة مشتتة وفي أعظم لحظات الخطر لم يستطع حكامها تأسيس جبهة دفاعية مشتركة. وليس أدل على مدى ذلك التشتت أكثر من ما جاء في كتاب يشوع بن نون الذي قال بأنه قتل واحداً وثلاثين ملكاً كنعانياً.

على خلفية مثل تلك العلاقات السياسية يصبح واضحاً النجاح الذي نسبته التوراة إلى ابن نون المزعوم. فلم تواجهه كنعان بقوة موحدة بل صارع ملوكها كلاً على حدة وعندما تأتى له أحياناً أن يواجه تحالفاً كنعانياً كان ذلك التحالف حديثاً أقيم على عجل لمواجهة الخطر المحدق». انتهى[1].

=أن يقتله القبرصيون فإذا به يجد إنساناً يتكلم المصرية ونجح في اكتساب حظوة ملكة قبرص، وبذلك نجا من القتل]. انتهى، د. سليم حسن، مرجع سابق، ص٥٥٤-٥٥٦.

(١) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التورات، ص١٥٥-١٥٧.

أما نحن فنرد على فرضية رعمسيس الثاني أو مرنبتاح ابنه بالشواهد التالية:

١. أن (بر رعمسيس) كانت عاصمة ملك رعمسيس الثاني، أحد ملوك الأسرة المصرية التاسعة عشر، وقد استمرت بعده عاصمة سياسية لمصر حتى نهاية عهد الأسرة العشرين بأكملها (الرعامسة المتأخرون)، وأيضاً في الأسرة الواحدة والعشرين (فراعنة تانيس)، كما أن نفس تلك البقعة الجغرافية، وقبل بناء مدينة رعمسيس، كانت هي عاصمة أجداد رعمسيس الثاني الذين أسسوا الأسرة المصرية التاسعة عشر، لذلك فإن الإشارة لمدينة (رعمسيس) في التوراة قد يشير إلى أي من هؤلاء الملوك على قدم المساواة، ويعد اختيار رعمسيس الثاني فقط من بينهم، اختياراً مشبوهاً ويفتقر لأبسط المعلومات عن تلك الشخصية، وعن تلك الحقبة بأكملها، كما يقفز على العديد من الحقائق التوراتية الأخرى والتي تصف عهد الخروج.

٢. الوثائق المصرية المتعلقة برعمسيس الثاني، هي الأكثر حفظاً في الوثائق التاريخية المصرية، ولا توجد فيها أية إشارات مباشرة أو غير مباشرة لأي من هذه الأحداث، وتعتبر حروب هذا الملك في آسيا، امتداداً طبيعياً للغاية لما قام به أسلافه من قرون طويلة، منذ تأسيس الأسرة (١٨) على يد أحمس الأول، كما تعد الأوضح في وقائعها، ولا يمكن أيضاً مقارنتها في الاتساع بفتوح أسلافه مثل تحتمس الثالث أو أمنحتب الثاني... إلخ.

٣. هل كانت مصر في عهد رعمسيس الثاني تمر بدورات قحط وجفاف وكوارث بيئية (كمثل ما ذكرته التوراة عن تلك الحقبة)، ورغم ذلك يقوم هذا الفرعون ببناء أعظم المعالم الحضارية المصرية التي حفظها لنا التاريخ حتى الآن؟

٤. هل كانت مصر في عهد هذا الملك تمر بدورة اضمحلال عسكري وسياسي حتى تكون أقرب الأراضي الآسيوية المتاخمة لها مثل (مدين) خارجة عن الحكم المصري، كما يشير القرآن الكريم والتوراة؟ الجواب معروف تاريخياً.

٥. أشار القرآن الكريم بما يوحي بأن فرعون موسى كان بلا ولد ذكر يرثه في الحكم، استنتاجاً من طلب امرأة فرعون المتعلق بتبني الرضيع موسى العبراني، كما نص صراحة على حدوث تغير في الحكم والسلطة عقب أحداث الخروج.. كما أن

التوراة قد أشارت إلى وفاة الابن البكر لفرعون وولي عهده في أحداث الوباء.. لذا يفترض هنا حدوث اضطرابات حول ولاية العرش بعد وفاة الملك، وبالقطع فإن هذا التصور لا يمكن تطبيقه على رعمسيس الثاني الذي كان له عشرات من الأبناء الذكور، والذي تولى بكره مرنبتاح المسن الحكم بعده بصورة طبيعية جداً.. وفي الحقيقة فإن تلك الجزئية يمكن تطبيقها بارتياح تام على (رعمسيس التاسع) الفرعون المفترض من قبلنا كفرعون للخروج.

٦. أما الضربة المباشرة لتلك الفرضية، فكانت هي العثور على مومياء (رعمسيس الثاني) سليمة، وقد أثبتت كل الفحوص التي أجريت عليها إبان وجودها في مصر، وكذلك حينما أرسلت إلى فرنسا للعلاج كسابقة أولى من نوعها في التاريخ كله، أن هذا الملك مات متأثراً بالشيخوخة من تصلب شرايين وخلافه، ولا آثار في جثته على الإطلاق للغرق أو اسفكسيا الغرق كما تنص القصص الدينية.

٧. أما عن طرح شخصية مرنبتاح كفرعون للخروج، فقد زعمت الأوساط اللاهوتية والكهنوتية بتأثير الإصبع الصهيوني، إلى أن الاضطهاد كان في زمن رعمسيس الثاني، أما الخروج فكان في زمن ابنه مرنبتاح، مستندين في ذلك الزعم على لوحة الانتصارات التي حققها مرنبتاح في آسيا، حيث إن الآثاريين أسموها (لوحة إسرائيل) وهي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة إسرائيل في كل الوثائق المصرية، وفي الحقيقة فإن عبارة (وإسرائيل قد أبيدت ولم يعد لها بذر أو لن يكون لها بذر) والتي وردت في تلك اللوحة، تشير إلى اسم هؤلاء القوم ضمن قبائل عديدة أخرى قهرها مرنبتاح في أرض فلسطين أو (حورو أو خارو)، ولا تخصصهم على الإطلاق كأمة أو دولة.

وعموماً فقد تم العثور على مومياء هذا الفرعون سليمة أيضاً، وبالفحص تبين قطعياً أنها لا تحمل هي الأخرى أية علامات للغرق.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت تلك الخرافة عن فرعون الخروج تتردد بين الفينة والأخرى، تحركها نفس الأصابع التي ابتدعتها.

وهكذا نرى أن الكاتب زينون كاسيدوفسكي في تحليله السابق يعود وربما بشكل غير مقصود ليصحح افتراضاته، ويطرح الأسرة العشرين، أسرة الرعامسة المتأخرين، ومن بينهم رعمسيس التاسع، كخلفية لأحداث حرب يشوع بن نون، وبالتالي حتماً حدث الخروج الإسرائيلي من مصر على يد موسى في تلك الفترة التاريخية فريدة الخصائص، والتي طرحناها سابقاً.

وهنا أترك القارئ الكريم بعد أن وضعت أمام عينيه حقائق وثوابت تاريخية لا مراء فيها، محاولاً أن أثبت صحة فرضية حقبة الخروج وفرعون الخروج بشكل لا يقبل الجدل من الناحية القرآنية والتوراتية والتاريخية، إلى أن ألقاه في كتابنا الثالث بإذن الله تعالى من هذه السلسلة وسوف نتحدث فيه عن اللاهوت التوراتي ومقارنته بديانات مصر القديمة لكي نضع أصابعنا على مواضع الاقتباس التي قام بها كهنة التوراة من ديانات مصر القديمة في لاهوت الخلق والكلمة وعدد أيام الخلق والرموز اللاهوتية المصرية التي أصبحت هي رموز اللاهوتية أو رموز اليهود حتى يومنا هذا.

طباعة - نشر - توزيع

المراجع

* القرآن الكريم.
* الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، طبعة ١٩٧٠م.
* الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، الطبعة الأولى، الإصدار الثالث، ٢٠٠٥.
* تاريخ مصر القديمة، وزارة المعارف المصرية، ١٩٥١م.
* موسوعة مصر القديمة، دكتور/ سليم حسن، ١٨ مجلد.
* الواقع والأسطورة في التورات، زينون كاسيدوفسكي، ترجمة د/ حسان ميخائيل إسحق، دار الأبجدية للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
* تاريخ إسرائيل: الأب متى المسكين، مطبعة دير الأنبا مقار، وادي النطرون، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧م.
* فجر الضمير: هذي برستيد، ترجمة الدكتور/ سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

طباعة - نشر - توزيع